

نهاية النظام العثماني

من هزيمة "فيينا" (في النمسا) إلى هزيمة "أوسطه والي" (في الجزائر)

1094 هـ - 1245 هـ / 1683 - 1830 م

the End of the Ottoman Regime

From the Defeat of "Vienna" (in Austria) to the Defeat of "Osta Wali" (in Algeria)

AH - 1245 AH / 1683 - 1830 AD 1094

خليفة حماش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة - الجزائر

ملخص :

تعد معركة فيينا (النمسا) التي خاضها الجيش العثماني بقيادة قره مصطفى باشا ضد الجيش النمساوي وحلفائه الأوروبيين عقب حصار العاصمة النمساوية (فيينا) في يوم 20 رمضان 1094 هـ / 12 سبتمبر 1683 م، وبعدها معركة "أوسطه والي" (الجزائر) التي خاضها الجيش الجزائري العثماني يوم 27 ذي الحجة 1245 هـ / 19 جوان 1830 م، ضد الفرنسيين الذين قدموا لاحتلال الجزائر، أخطر معركتين خاضتهما الدولة العثمانية في تاريخها الذي امتد على طول ستة قرون من الزمن. ذلك أن العثمانيين قد انهزموا في كلتا المعركتين هزيمتين مروعتين، أقول إذا كان انهزامهم في فيينا قد أوصل حدود دولتهم إلى تلك الصورة، فإن انهزامهم في المعركة الثانية (أوسطه والي) قد أجبرهم على الخروج من الجزائر، وبعدها من تونس ومصر والسودان، وطرابلس الغرب (ليبيا)..

الكلمات المفتاحية: هزيمة النمسا -، هزيمة "أوسطه والي" - الدولة العثمانية - أياالة الجزائر

Summary

The Battle of Vienna (Austria) fought by the Ottoman army led by Kara Mustafa Pasha against the Austrian army and its European allies after the siege of the Austrian capital (Vienna) on 20 Ramadan 1094 AH / 12 September 1683 AD, and then the Battle of "Osta Wali" (Algiers) fought by the Ottoman Algerian army on 27 Dhu al-Hijjah 1245 AH / 19 June 1830 AD, against the French who came to occupy Algeria, are the two most dangerous battles fought by the Ottoman Empire in its history that spanned six centuries. This is because the Ottomans were defeated in both battles with horrific defeats. I say that if their defeat in Vienna brought the borders of their

state to that picture, then their defeat in the second battle (Osta Wali) forced them to leave (Algeria, and after that from Tunisia, Egypt, Sudan, and Tripoli (Libya).

Keywords: Defeat of Austria - Defeat of "Osta Wali" - Ottoman Empire - Eyalet of Algeria

مقدمة:

تعد معركة فيينا (النمسا) التي خاضها الجيش العثماني بقيادة قره مصطفى باشا ضد الجيش النمساوي وحلفائه الأوروبيين عقب حصار العاصمة النمساوية (فيينا) في يوم 20 رمضان 1094 هـ / 12 سبتمبر 1683 م، وبعدها معركة "أوسطه والي" (الجزائر) التي خاضها الجيش الجزائري العثماني يوم 27 ذي الحجة 1245 هـ / 19 جوان 1830 م، ضد الفرنسيين الذين قدموا لاحتلال الجزائر، أخطر معركتين خاضتهما الدولة العثمانية في تاريخها الذي امتد على طول ستة قرون من الزمن. ذلك أن العثمانيين قد انهزموا في كلتا المعركتين هزيمتين مروعتين، وإذا كانت هزيمتهم في المعركة الأولى قد أجبرتهم على الانسحاب من المجر التي فتحت في عهد السلطان سليمان القانوني عام 1529 م، وبعدها على البلقان والأراضي الأوروبية بوجه عام، إلى أن انحصرت حدودهم بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون، في بقعة ضيقة من أوروبا لا تتجاوز مدينة أدرنة وضواحيها، والتي تبعد عن إستانبول بنحو مائتي كيلومتر، أقول إذا كان انهزامهم في فيينا قد أوصل حدود دولتهم إلى تلك الصورة، فإن انهزامهم في المعركة الثانية (أوسطه والي) قد أجبرهم على الخروج من الجزائر، وبعدها من تونس ومصر والسودان، وطرابلس الغرب (ليبيا)، وبعدها وكانت المحصلة العامة التي ترتبت في عام 1922 م عن الانهزام في المعركتين المذكورتين هو نهاية النظام العثماني برمته وسقوط الدولة العثمانية الكبرى (أو العالمية) التي كان جناحها يغطيان أراض واسعة في القارات الثلاث (آسيا وأوروبا وأفريقيا)، ومعها البحار الكبرى الثلاثة: المتوسط والأسود والأحمر، وحلول دولة قطرية محلها هي الجمهورية التركية. وبناء على تلك النتائج الخطيرة التي ترتبت عن المعركتين المذكورتين فإن كل مؤرخ مختص في التاريخ العثماني بوجه خاص، والتاريخ الحديث بوجه عام، بات عليه أن يطرح السؤال الذي يبحث في أسباب الهزيمة التي لحقت العثمانيين في المعركتين المذكورتين.

وفي ظل الوقائع التاريخية الكثيرة التي صارت شاخصة أمام أعيننا اليوم والإشكالات المتعددة التي أصبحت تطرحها علينا تلك الوقائع لمعرفة أسباب حدوثها، فهل يمكن لنا بخصوص المعركتين المذكورتين، أن نكتفي بالأسباب التقليدية التي أوردتها المؤرخون حولها ونقتنع بها كما هي، أم علينا أن نبحث عن أسباب أخرى غيرها أكثر إقناعا. وإذا أخذنا بالاحتمال الثاني فأين يكون البحث عن تلك الأسباب، فهل هو في المجال الذي تمثله المؤسسة العسكرية العثمانية والظروف الميدانية التي أحاطت بوقوع المعركتين كما فعل المؤرخون، أم يكون ذلك في مجال آخر، وبالتحديد في الواقع التاريخي والحضاري العام للطرفين اللذين جمعتهم المعركتان. وبأسلوب آخر أكثر وضوحا: كيف قسرت الكتابات التاريخية في القرن الماضي وقبله، انهزام العثمانيين في المعركتين المذكورتين، وهل تلك التفسيرات هي اليوم مقنعة لنا ولطلبتنا في المدارس والجامعات، أم غير مقنعة، وإذا كانت غير مقنعة فما هو التفسير البديل الذي علينا تقديمه؟ وتلك الأسئلة هي التي تشكل موضوع عملنا هنا، وتكون الإجابة عنها من خلال ثلاثة عناصر أساسية: أولها التعريف بالمعركتين، والثاني أسباب هزيمة العثمانيين فيهما كما تقرأ في الكتابات التاريخية، والثالث أسباب الهزيمة كما تُرى في الواقع العام والسائد آنذاك، وأنهينا العمل بخاتمة تضمنت ملخصا ونتيجة عامة للموضوع.

أولاً: التعريف بالمعركتين:

أ. معركة فيينا:

تنسب هذه المعركة إلى مدينة "فيينا" عاصمة النمسا في العصر الحديث. وكانت منذ القرن العاشر حتى سنة 1806 م عاصمة للأمبراطورية الرومانية المقدسة. وصارت بعد ذلك إلى سنة 1866 عاصمة للأمبراطورية النمسا، ومنها إلى سنة 1918 عاصمة لدولة النمسا الموحدة، وبعد ذلك عاصمة لدولة النمسا الحالية. وتستمد اسمها من اسم نهر صغير بطول 34 كلم، يقطعها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويصب في نهر الدانوب الذي يقطع مدينة فيينا هو الآخر بالاتجاه نفسه. وهي تحتل موقعا استراتيجيا في قارة أوروبا، استمدته من اعتبارات جغرافية وتاريخية وسياسية. فالاعتبار الجغرافي يمثلّه من جهة موقعها على نهر الدانوب العظيم الذي يقطع قارة أوروبا من الغرب إلى الشرق ويصب في البحر الأسود، مما وفّر لها وسيلة اتصال بحرية مهمة بينها وبين مدن أوروبية كبرى أخرى تقع على النهر نفسه، وهي بلغراد وبودابست في الشرق، وميونخ في الغرب. ومن جهة أخرى كونها تتوسط قارة أوروبا، بل هي قلبها، مما جعلها حلقة ربط بين أقسامها الأربعة: الشمال حيث تقع بولندا وألمانيا، والجنوب حيث تقع إيطاليا، والغرب حيث تقع فرنسا وإسبانيا، والشرق حيث تقع دول البلقان. وهي كلها دول ذات أهمية إستراتيجية معتبرة، وذات وزن تاريخي وسياسي وعسكري كبير في القارة. أما الاعتبار التاريخي والسياسي فتستمدّهما مدينة فيينا من كونها ظلّت منذ القرن العاشر الميلادي إلى عام 1806 عاصمة للإمبراطورية الرومانية المقدسة وريثة الإمبراطورية الكارولنجية التي كان الإمبراطور شارلمان (768 . 814 م) أعظم أباطرتها. وعلاوة على ذلك فإن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت تُعتبر الوريث التاريخي للإمبراطورية الرومانية، وكانت أراضيها تشمل أوروبا الغربية والوسطى. وكانت تحكمها أسرة آل هابسبورغ النمساوية من 1452 إلى 1740 م.

وبالنظر إلى تلك الأهمية المتعدّدة الجوانب التي نالتها مدينة فيينا فإنه من الطبيعي أن تكون هدفاً عسكرياً لكل دولة غطى تسعى ليكون لها وجود معتبر في قارة أوروبا، وبشكل خاص إذا كانت تلك القوة تتمركز في مدينة إستراتيجية أخرى مثل إستانبول المقابلة لها في الشرق، والمهيأة جغرافيا لتكون عاصمة لكل دولة غطى تسعى لتمد جناحيها على أوسع بقاع الأرض البرية والبحرية، وهي آسيا في الشرق، وأوروبا في الغرب، والبحر الأسود في الشمال، والبحر المتوسط في الجنوب. وهذه العلاقة الإستراتيجية الحتمية بين إستانبول وفيينا هي التي عبّر عنها أحد رجال السياسة والقانون الأوروبيين المشهورين في القرن التاسع عشر الميلادي وهو الإسباني خوان دونوسو كورتس Juan Donoso Cortes (1809 . 1853 م) عندما تحدّث عن أهمية إستانبول بالنسبة إلى النمسا، وبينّ الخطر الذي ستشكّله روسيا على وجودها السياسي (أي وجود النمسا) في حالة نجاحها في انتزاع تلك المدينة من أيدي العثمانيين، فقال: "إن اليوم سيستولي فيه الروس على القسطنطينية سيكون هو اليوم ذاته الذي ستُحمى فيه النمسا من قائمة الدول العظمى، وليس ذلك فحسب، بل إن ذلك اليوم سيكون هو اليوم الذي سيبدأ فيه محو اسمها من قائمة الدول في العالم أيضا"¹. ويقصد بذلك أن روسيا إذا ما أفلحت في الاستيلاء على القسطنطينية، فإن ذلك الاستيلاء سيدفعها حتما إلى الاستيلاء على النمسا. ولعل هذا المبدأ العسكري والسياسي الذي تتحكم فيه الجغرافيا، هو الذي رسم نظرة العثمانيين تجاه فيينا وحدد موقعها في مخطط إستراتيجيتهم العسكرية وسياستهم الأوروبية منذ فتحهم للقسطنطينية عام 758 هـ / 1453 م. وترجمت تلك النظرة في الواقع العسكري من خلال وقوف جيوشهم على أبوابها مرتين بهدف فتحها، الأولى منهما عام 935

¹ Gérardin (Emile de), Solution de la Question d'Orient, Paris, 2e éd., Paris, Librairie Nouvelle, 1853, p 19

هـ / 1529 م بقيادة السلطان سليمان القانوني، والثانية في عام 1094 هـ / 1683 م بقيادة الصدر الأعظم مرزيفونلي قره مصطفى باشا، في عهد السلطان محمد الرابع (1647 . 1687 م).² ولم يحقق كلا الحصارين هدف العثمانيين في الاستيلاء على المدينة. وإذا أمكن لنا أن نَعُدَّ الحصار الأول بمثابة اكتشاف جغرافي وطوبوغرافي وعسكري للمدينة، بحكم أن العثمانيين لم تكن لهم معرفة من قبل بالمنطقة التي تقع فيها فيينا، فإن الحصار الثاني لم يكن كذلك، وإنما كان عملاً عسكرياً حقيقياً هدفه الاستيلاء على المدينة، ولذلك استخدم فيه العثمانيون جميع إمكاناتهم العسكرية، من جيش³ وسلاح⁴، ومعرفة بالمنطقة⁵، وخبرة قتالية⁶. وبدأ حصار المدينة يوم 19 رجب 1094 هـ / 14 جويلية 1683 م، واستمر إلى يوم 20 رمضان / 12 سبتمبر من السنة نفسها، وبلغت مدته تسعة وخمسين (59) يوماً. وقام العثمانيون أثناء تلك المدة بثمانية عشر (18) هجوماً على المدينة لافتحامها، كان أولها يوم 25 جويلية، وآخرها يوم 8 سبتمبر⁷. وحتى اليوم الأربعين من الحصار كان العثمانيون قد حققوا تقدماً ملموساً في عملياتهم العسكرية، ولكنهم خسروا عدداً كبيراً من قواتهم، وكان من القتلى والى الروميل كوجك حسن باشا⁸. وفي يوم الرابع والخمسين من الحصار (7 سبتمبر) تفقد الصدر الأعظم قره مصطفى باشا الجيش العثماني الذي كان يتشكل من مائتي ألف جندي، فوجد عدده قد نقص بنحو الرابع، ولكن مع ذلك فلم يقرر رفع الحصار، وأمر باستمراره، مع أن التقاليد العسكرية العثمانية التي كان يجري العمل بها آنذاك في عمليات الحصار تنص على أن الحصار إذا دام أربعين يوماً ولم يحقق النتيجة المرجوة منه فإنه يجب رفعه والانسحاب عن المدينة المحاصرة. وبعد ثلاثة أيام من ذلك غيّر الصدر الأعظم خطة توزيع وحدات الجيش استعداداً لخوض معركة كبرى بعد أن وصلته معلومات استخباراتية تفيد وصول جيش الحلف الأوروبي الذي جرى إعداده في أوروبا للدفاع عن مدينة فيينا، وكان مكوناً بشكل أساسي من البولونيين والبافاريتين والألمان، وقُدِّر عدده بمائة وعشرين ألف (120000) جندي. وفي يوم 12 سبتمبر وقعت تلك المعركة المنتظرة، وكانت معركة عظيمة بعظمة المدينة التي وقعت من أجلها، وخاضها الجانبان بكامل قواهما. وعندما وصلت الساعة الرابعة مساءً بدأ العثمانيون يتراجعون في ميدان

² هناك حصار عثماني آخر للمدينة حدث في عام 1633 م، ولكنه غير مؤكد، وإن حدث ذلك الحصار فهو ليس شهيراً مثل الحصارين الآخرين.

³ يقدر المؤرخون الأتراك الجيش الذي شكل حملة فيينا بأكثر من خمسمائة ألف (500000) رجل. وهو يتشكل من قسمين: قسم المقاتلين وعددهم 350 ألف رجل، وهم 60 ألف من المشاة (انكشارية وجبجية ومدفعية)، و15000 من الفرسان، و50 ألف من جنود إمارة القرم (التاتار)، و40 ألف من جنود التيمار والزعامت (الإقطاع)، و3000 من المصريين، و5000 من الشاميين، و30 ألف من جنود إمارات اردل (ترانسيلفانيا) وبوغدان وأفلاق (لكل منهم 10 آلاف رجل)، و20 ألف من المجريين. والباقي من قوات الإيالات والسناجق. أما القسم الثاني فيمثل رجال الدعم، وعددهم 150 ألف رجل. راجع:

Uzunçarşılı (Ismail Hakkı), Osmanlı Tarihi, 3. Cilt, 1 kısım, 3. baskı, Ankara, TTK Basımevi, 1983, s. 440.

أما جوزيف دو هامر فيقدر الجيش العثماني الذي شارك في الحصار بمائتي ألف فقط راجع:

Hammer (Joseph de), Histoire de l'Empire Ottoman, T. 12, Paris, Bellizard, p. 193.

⁴ أهمها المدافع، ولكن ليس لدينا معلومات عن العدد الذي حملوه منها معهم، ولكن ما تركوه منها في محيط المدينة بعد الهزيمة وهو 300 مدفعاً يدل على أنه كان عدداً كبيراً. راجع:

Hammer, Histoire ..., op. cit., p. 116 ; Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, g. e., s. 453

⁵ نتيجة وجودهم بأرض المجر، وحصارهم الأول للمدينة في عام 1529 م.

⁶ هي خبرة ناتجة عن عمليات حصار كثيرة قاموا بها في أوروبا، ومن وسائل ذلك استخدام المدافع، وحفر الأنفاق، وهدم الحصون.

⁷ Hammer, Histoire ..., op. cit., p. 104

⁸ Hammer, Histoire ..., op. cit., p. 108

القتال، وبدأت مع ذلك كفة الانتصار تميل لصالح الأوروبيين. وعندما حلت الساعة السابعة كانت المعركة قد أشرفت على نهايتها. وبعد مدة قصيرة من ذلك تقررنت نتيجتها التي كانت لصالح الأوروبيين. وانسحب العثمانيون إثر ذلك من ساحة القتال تحت جناح الظلام تاركين خلفهم عددا كبيرا من القتلى بلغ عشرة آلاف، زيادة على قسم من عتادهم العسكري، ومنه 300 مدفع، و5000 خيمة كان منها خيمة الصدر الأعظم قره مصطفى باشا بما احتوت عليه من أموال وسجلات إدارية وأسلحة وأشياء ثمينة خاصة⁹، وكذلك الرايات التابعة للجيش، وكان منها واحدة حمراء مزينة بأيات قرآنية اعتقد النمساويون خطأ أنها الراية الشريفة¹⁰، ولذلك أرسلوها هدية إلى البابا في روما، وحُفظت في كنيسة القديس بطرس¹¹. وكانت ضخامة تلك الهزيمة والأخطار التي ترتبت عنها بالنسبة إلى الدولة العثمانية في مستوى ضخامة مشروع الفتح نفسه، والإمكانات العسكرية التي سُخِّرت له، والنتائج التي كانت مرجوة منه. ووصف المؤرخ النمساوي جوزيف دو هامر تلك الهزيمة وبأسلوب مزج فيه بين الفخر والحقيقة التاريخية، فقال: "كانت نتيجة المعركة أن أنقذت مدينة فيينا، وتحطمت على أسوارها موجة القوة العثمانية الهدامة التي سبق أن هددتها مرة أخرى قبل ذلك بمائة وأربعة وخمسين عاما، وذلك في عهد السلطان سليمان، وكأن تلك الموجة واجهات سدا واقيا للحضارة المسيحية ضد البربرية الشرقية. وبعدما صارت تلك القوة تهدد وتبتطش أكثر من أي وقت مضى، ها هي في النهاية تزول دون رجعة"¹².

وبعد الهزيمة انسحب قره مصطفى باشا على رأس الجيش العثماني نحو الشرق باتجاه "يانيق قلعه" بالمجر، ووصلها يوم 22 رمضان (14 سبتمبر)، وكان أبرز عمل قام به هناك إصدار أمر بإعدام والي بودين أوزون إبراهيم باشا، لاثامه بالفرار من ميدان القتال، وكان بذلك سببا مباشرا في وقوع الهزيمة. وبعد أن قضى الصدر الأعظم هناك ثلاثة أيام أجرى خلالها تقييما عاما للوضع، واصل سيره نحو الشرق إلى أن وصل إلى مدينة بلغراد. وهناك أرسل إليه السلطان محمد الرابع، الذي كان قد أبلغ بالهزيمة، من نفذ فيه حكم الإعدام هو الآخر¹³. وكانت أخطر نتيجة ترتبت عن هزيمة فيينا دخول الدولة العثمانية في حرب طويلة الأمد ضد الحلف الأوروبي المقدس الذي تشكل ضدها في عام 1684 م على إثر تلك الهزيمة، وشاركت فيه كل من النمسا وبولندا وروسيا والبندقية. ودامت تلك الحرب التي كلفت الدولة العثمانية كثيرا من الخسائر في الأموال والأرواح، ست عشرة (16) سنة، وذلك حتى عام 1699 م حيث عقدت معاهدة كارلوفجه بين الجانبين، وفقدت الدولة العثمانية بموجبها أراض واسعة لصالح الدول المتحالفة، ومن ذلك بلاد المجر بأكملها، زيادة على أراض أخرى في شبه جزيرة القرم شمالي البحر الأسود، وأخرى على البحر الأدرياتيكي، وأقسام من أوكرانيا ورومانيا¹⁴. وفي ذلك كله إيدان ليس فقط بتوقف فتوحات الدولة العثمانية في أوروبا، وإنما ببداية تراجع حدودها عن القارة أيضا، وانتقال أراضها هناك إلى خصومها الأوروبيين.

⁹ يوجد وصف لمحتويات خيمة الصدر الأعظم في رسالة بعث بها الملك البولوني سويسكي الذي كان قائدا لجيش بلاده في المعركة، راجعها في:

Hammer, Histoire ..., op. cit., p 117 – 119

¹⁰ الراية الشريفة هي الراية التي تنسب للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان العثمانيون يصطحبونها معهم في معاركهم. وتسمى سنجاك شريف أيضا.

¹¹ حول الخسائر العثمانية في المعركة راجع:

Hammer, Histoire ..., op. cit., p 110 – 119 ; Uzunçarşılı, Osmanlı tarihi, g. e., s 452 - 453

¹² Hammer, Histoire ..., op. cit., p 120

¹³ Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi ..., g. e., 457-458

¹⁴ حول معاهدة كارلوفيتز راجع:

Œuvres complètes de l'abbé de Mably, T. 5, Lyon, J.B. De Lamolliere, 1792, pp 526-551

ب . معركة أوسطه والي (سطاوالي - Staouëli):

هي المعركة التي وقعت يوم "19 جوان [1830 م] / 27 ذي الحجة [1245 هـ]"¹⁵ بين الجيش الفرنسي الذي أُرسِل لاحتلال مدينة الجزائر، وبين الجيش الجزائري العثماني الذي أُرسِل لمقاومته ومنعه من تحقيق هدفه. وتنسب تلك المعركة حسب الكتابات الفرنسية التي أرخت للحملة، إلى الاسم الذي أطلقه الفرنسيون على المكان الذي وقعت فيه المعركة، وهو (Staouëli). ويقع إلى الغرب من مدينة الجزائر، ويبعد عنها بمسافة نحو عشرين كيلومترا. وهناك روايات عديدة أوردتها الكتابات والتقارير التي أرخت للحملة حول تحديد ذلك المكان بدقة. وإذا أخذنا بالتقرير الذي حرره قائد الحملة الكونت دو بورمون إلى رئيس مجلس وزراء بلاده يوم 22 جوان 1830، فإن قادة الحملة اعتقدوا في بداية الأمر، وبناء على تقارير وخرائط الأشخاص الذين زاروا مدينة الجزائر وأقاموا فيها من قبل، (ومنهم إيف بوتان Yves Boutin عام 1808 م) أن المعركة وقعت في المكان المسمى (سطاوالي - Staouëli). ولكن قادة الحملة ما لبثوا أن اكتشفوا خطأهم في تحديد اسم المكان الحقيقي الذي وقعت فيه المعركة، بعد أن اتضحت لهم المناطق المحيطة بمدينة الجزائر بعد وقوع الهزيمة بالجزائريين، وقياس المسافات الموجودة بينها، ومقارنة ذلك مع ما هو موجود على الخرائط، إذ تبين لهم أن المعركة وقعت في مكان آخر غير منطقة (سطاوالي). وبعد الاستفسار عن اسم ذلك المكان لدى الجنود الجزائريين الذين وقعوا أسرى لدى الجيش الفرنسي، تبين أنه (سيدي خالف Sidi-Khalef)¹⁶. وهذه الرواية هي التي اعتمدت عليها الكتابات الفرنسية التي أرخت للحملة بعد ذلك، وأوردتها بطرق مختلفة¹⁷، حتى أن هناك من ذكر بأن اسم المكان الحقيقي هو (Staouëli)، وإنما الخرائط التي اعتمد عليها الجيش الفرنسي في السير نحو مدينة الجزائر، ومنها الخريطة التي رسمها العقيد بوتان عام 1808 م، هي التي كانت تفتقد إلى الدقة، وأطلقت على المكان اسما آخر غير اسمه

¹⁵ Rozet (M), Relation de la guerre d'Afrique pendant les années 1830 – 1831, T. 1, Paris, 1832, pp 145 .

وهكذا حُدد التاريخ الذي وقعت فيه المعركة في المصدر المذكور بالتاريخين الميلادي والهجري. وتعد هذه الطريقة التي استخدمها النقيب روزي في التأريخ للأحداث المتعلقة بتاريخ الجزائر، نادرة في الكتابات الفرنسية، إن لم تكن الوحيدة. ويبدو أن النقيب روزي أراد أن يبلغ فكرة معينة من خلال ذلك الاستخدام للتاريخين الميلادي والهجري معا، وذلك باعتبار التاريخ سجلا يُذكر الشعوب بماضيها ويبرز شخصيتها. ومن ثمة فإن الجزائريين من خلال التاريخ الهجري يقرأون الهزيمة، والفرنسيون من خلال التاريخ الميلادي فيقرأون الانتصار. ولكن مع ذلك فإن النقيب روزي أمَدنا بمعلومة تاريخية مهمة تتعلق بتحديد اليوم الذي وقعت فيه المعركة بالتاريخ الهجري، وذلك ما لا نجده في المصادر العربية المحلية التي تعود إلى ذلك العهد، وأهمها مذكرات أحمد الشريف الزهار حيث نجد ذكرا للشهر الذي وقعت فيه المعركة وهو ذو الحجة، مع ذكر اليوم أيضا وهو السبت، وهو يوم أكدته المصادر الفرنسية أيضا، ولكن دون تحديد لما يمثله ذلك اليوم ضمن الشهر. (الشريف الزهار (أحمد)، مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، ط 2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص 171-172).

¹⁶ Lesur (C. L.), Annuaire historique universel pour 1830, Appendice, 1ere partie, Paris, Thoisnier – Desplaces, 1832, pp 14-15

¹⁷ نذكر من تلك الكتابات:

Desprez (François A.), Journal d'un officier de l'Armée d'Afrique, Paris, Chez Anselin, 1831, p 113 : Ault-Dumensil, (E. d'), De l'expédition d'Afrique en 1830, Paris, l'Editeur, 1832, p 210, N 1 : Joanne (Adolphe), Voyage en Afrique, Paris, Delevingne, 1850, p 128 : Anonyme, Précis des opérations en Afrique du 13 mai au 28 juin 1830, dans: Le Spectateur militaire, T. 9/1830, Paris, 1830, p 448

الحقيقي¹⁸. وإن اسم (Staouëli) أو (Staouëli)، واسم (Sidi-Khalef) اللذين ورد ذكرهما في المصادر الفرنسية، إنما هما "أوسطه والي" و"سيدي يخلف" الواردين في المصادر الجزائرية التي تعود إلى ذلك العهد¹⁹.

وكان عدد الجيش الفرنسي في تلك المعركة نحو سبعة وثلاثين ألف رجل، يقوده الكونت دو بوربون²⁰. أما الجيش الجزائري الذي أرسل لمنع تقدم الفرنسيين نحو المدينة وصدهم عن احتلالها، فعدده غير معروف على وجه الدقة، وإن كان لا يقل في أدنى التقديرات عن عشرين ألف رجل²¹، وكان بقيادة إبراهيم آغا صهر حسين باشا، ويساعده اثنان من البايات هما باي الشرق (قسطنطينة) أحمد باي، وباي تيطري مصطفى بومزراق، ومعهما خليفة باي الغرب (وهران). وبدأت المعركة بعد صلاة الصبح (في الساعة الرابعة ونصف)²²، واستمرت إلى منتصف النهار²³. وكانت مدتها نحو سبع ساعات ونصف. وكانت مشاركة الجزائريين فيها بمختلف فئاتهم: أتراكا وعربا وقبائل (بربر)، وشبابا وشيوخا، وحتى النساء. وأبدوا جميعا في المعركة شجاعة كبيرة، وذكاء معتبرا، واستشهد منهم كثير من الرجال، وقتلوا وجرحوا من الفرنسيين عددا كبيرا، كما شهد بذلك مؤرخو الحملة الفرنسية أنفسهم، من عسكريين ومدنيين²⁴. ولكن مع ذلك كله فإن المعركة لم تنته لصالحهم وإنما لصالح الفرنسيين، وكانت الهزيمة مشابهة لهزيمة العثمانيين أمام أسوار فيينا عام 1683 م تماما، ففي كليهما كانت الهزيمة يوم السبت، وكان فرار الجيش العثماني من ساحة القتال وترك معداته

¹⁸ Piesse (Louis), Itinéraire historique et descriptif de l'Algérie, Paris, Hachette, 1862, p 71-72 Galibert (Léon), Histoire de l'Algérie ancienne et moderne, Paris, Furne, 1843, pp 289-290

¹⁹ لا نريد أن نخوض في تحقيق الاسمين المذكورين هنا، ورأينا أن نؤجل ذلك إلى بحث آخر في المستقبل.

²⁰ راجع تفاصيل مكونات الحملة البشرية والمادية في:

Pérrot (A. M.), La conquête d'Alger, Paris, H. Langlois, 1830, pp 42-67

²¹ ذلك حسب تقدير الضابط بيليسي. ارجع:

Reynaud (E. Pellissier), Annales algériennes, nlle éd., Paris, J. Dumaine, 1854, T. 1, p 42

وهناك تقديرات أخرى مختلفة، استند فيها مؤرخو الحملة إلى أقوال ضباط الجيش الجزائري الذين التقوا بهم بعد احتلال مدينة الجزائر، والقناصل الذين كانوا مقيمين هناك، فذكر بعضهم عدد أربعين ألفا. (راجع: Ault-Dumesnil, l'expédition d'Afrique ..., op. cit., p 55). وقال بعضهم الآخر ليسوا أقل من خمسة وأربعين ألفا (Rotalier, Histoire d'Alger ..., T 2, p 445). ولكن هناك من قال بأن عدد أربعين ألفا الذي تبناه بعض المؤرخين مبالغ فيه كثيرا، ورأى بأن العدد الواقعي هو في أحسن الأحوال نحو خمسة وعشرين ألفا فقط (Desprez, Rozet, Voyage, Journal ..., op. cit., p 110). وهناك من رفع ذلك العدد قليلا إلى ثلاثين ألفا، وقال بأنه لا يزيد عن ذلك (Rozet, Voyage, Journal ..., op. cit., p 110). وهناك مصادر أعطتنا بعض التفاصيل عن ذلك العدد، فذكرت أن القسم الذي كان يقوده إبراهيم آغا كان يتشكل من 3000 انكشاري، و5000 قول أوغلي، و6000 من سكان مدينة الجزائر، ومن وحدات تيطري (دون ذكر العدد)، و6000 من القبائل؛ ثم القسم الثاني الذي كان يقوده باي قسنطينة وكان يتشكل من: 1000 انكشاري، ووحدات قسنطينة ووهران (دون ذكر العدد)، و6000 من القبائل (Saint Denys, Considérations statistiques, historiques, militaires et politiques sur la régence d'Alger, Paris, Delaunay, 1931, p 176). ويعني ذلك أن العدد يتجاوز سبعة وعشرين ألفا، وقد يصل إلى أربعين ألفا.

²² الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 172. وكذلك: Rozet, Relation de la guerre ..., op. cit., pp 145, 158.

²³ Desprez, Journal, op. cit., p 106 ; Rotalier (ch. de), Histoire d'Alger et de la piraterie des Turcs dans la Méditerranée, t. 2, Paris, Paulin, p 443

²⁴ راجع بعض تلك الشهادات في:

Ault-Dumensil, De l'expédition ..., op. cit., p 56; Nettement, histoire de la conquête ..., op. cit., p 377-378, 385-386; Rozet, Relation de la guerre..., op. cit., p 146, 163 - 164; Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., pp 172, 174.

ليستولي عليها العدو، ومنها خيمة القائد العام بما احتوت عليه من أموال وسجلات إدارية وأسلحة وأغراض خاصة وعامة. وقد وصف أحمد الشريف الزهار المعاصر آنذاك تلك الهزيمة التي مُني بها الجزائريون في معركة أوسطه والي أمام الفرنسيين، فقال: "فعند ذلك انهزموا (أي الجزائريون)، واسودت الوجوه في ذلك اليوم، ولا أحد لحق الآخر. فلما وصلوا لمكان المحلة²⁵ وجدوا الأغا [إبراهيم] قد هرب وترك ما عنده في المحلة، وصار الأعيان من الناس يربصون²⁶ الجند المهزم، والجند لا يزيد إلا فرارا. فلما رأى النصارى هروب الناس وضعفهم هاجموا المحلة واستولوا على ما فيها، فأما العرب فكل واحد رجع لموضعه [...] وأما النساء من أهل البساتين فقد تركوا بساتينهم وأمتعتهم وأتَيْن هارين للبرد حفاة عرا [...] ثم أن العرب المهزمين عندما رأوا أن العدو قد أخذ المحلة، قصدوا البساتين ونهبوا ما في أبراجها من أرزاق المسلمين ثم رجعوا لبلادهم"²⁷. وأما المصادر الفرنسية فقد أفاضت في وصف تلك الهزيمة، لأنها كانت في المقابل انتصارا لهم ولحضارتهم وديانتهم، على الحضارة الإسلامية التي يعتبرونها بربرية، وعلى الدين الإسلامي الذي يعتبرونه هرطقة ومروقا. وكان أهم موضوع استقطب تلك المصادر وتحدثت عنه بتوسع، هي لحظة الهجوم الفاصل الذي قام به الجيش الفرنسي على الجزائريين وأرغمهم بواسطته على التراجع والفرار أمامه نحو معسكرهم الذي عجزوا عن الدفاع عنه، وأرغموا على تركه خلفهم ليسقط بما احتوى عليه غنيمة حرب في يد عدوهم. وقد فصّلت المصادر الفرنسية في وصف لحظة الهزيمة تلك بالنسبة إلى الجزائريين، كما فصلت في ذكر الغنائم التي عثر عليها الجيش الفرنسي في المعسكر الجزائري. فيقول النقيب روزي: "وفي هذه الفترة فإن العدو (الجزائري) قد أُجبر على التراجع ثم الفرار نحو معسكره، وركض الجنود الفرنسيون les voltigeurs خلفه حتى المعسكر، وهناك اكتملت الهزيمة: فصار العرب والأتراك والقبائل Arabes, Turcs, Kbaili يركضون في كل الاتجاهات [...]، وكذلك عدد كبير من الجمال والأغنام التي تركوها خلفهم، فصارت هي الأخرى تجري بين الخيام. أما الجنود الفرنسيون فهجموا على المعسكر ثم اجتازوه باحثين عن العدو في كل مكان [...]". فكان يجري في المعسكر أكثر من 150 من الجمال، وعدد كبير من البغال والأحمر والبقر والغنم، فاستولى عليها الجنود الفرنسيون جميعا [...]". كما وُجد في المعسكر مخازن معبأة بالمؤن الغذائية والذخائر الحربية، وأكوام كبيرة من الشعير، ومن الخبز المصنوع من دقيق يتشكل قسم منه من الذرى (البيسكوي). كما وجد في المعسكر 284 خيمة، ووجد في أغلبها المؤن، والقهوة، والسكر، والبرتقال، والليمون، وكثير من التبغ، وجليونات ذات أنابيب من الخشب اختطفها الجنود الفرنسيون بشراهة كبيرة. أما في خيام الضباط والقادة فوجدنا أشياء ثمينة وكميات من الفضة"²⁸.

وورد في مصدر آخر للضباط دومنسيل: "لقد هجم جنودنا على معسكر سطاوالي وحماس القتال وفرحة الانتصار تحيط بهم من كل جانب، أما العدو فقد انسحب منه بفوضى كبيرة. وإن قساوة الجزائريين ودمويتهم التي كانت تدفعهم إلى قطع رؤوس الفرنسيين بسيوفهم دون رحمة ولا شفقة أثناء القتال، أدت إلى وقوع أعمال انتقام كبيرة منهم أثناء المعركة. ولم نقبض سوى على عدد قليل من الأسرى منهم، ولكن بعد أن سيطرنا على معسكر سطاوالي الواسع فإننا غنمنا رايات العدو الصغيرة والكبيرة، وأثوابهم، وأسلحتهم، وجميع مدافعهم. ووجدنا به البارود، والقذائف، ونسخة جميلة من القرآن، وسجلات الجيش ووثائق قائد الجيش التركي (الأغا) الشخصية، والمؤن، والتبغ، والقهوة، والسكر، والنقود الذهبية والفضية، كما وجدنا قطيعا من الغنم، ونحو مائة من الجمال [...]". وكانت توجد في معسكر سطاوالي

²⁵ مكان المحلة: يقصد به هنا المعسكر الذي أقامه الجزائريون في أوسطه والي.

²⁶ يربصون: بمعنى يترصون، وينتظرون.

²⁷ الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 172.

²⁸ Rozet, Relation de la guerre ..., op. cit., pp 156-159

نحو ثلاثمائة من الخيام المصنوعة من القماش الأبيض، وهي أكبر من خيامنا، وأوسع منها وأكثر تهوية [...]. ومن بينها خيمة قائد الجيش التركي (الآغا)، وخيمة باي تيطري، اللتان تركهما العدو في المعسكر بعد فراره غير المنتظر. وكانت الخيمتان تحتلان مكانا فسيحا في المعسكر وتبدوان كأنهما ملكتان عظيمتان، وكانتا واسعتين كثيرا، ومرتفعتين، ولهما شكل شرقي يثير الإعجاب، وكل خيمة مقسمة طوليا إلى ثلاثة أجنحة غير متساوية، وكان أحدها أكبر من الجناحين الآخرين مجتمعين، وهو مخصص لصاحب الخيمة (الآغا أو الباي)، والجناح الثاني لنسائه، والثالث لعقد مجالس الاستقبال. وكان القسم الداخلي لهاتين الخيمتين مصنوعا من قماش نُسج من الصوف ولونه أحمر وأصفر. وهما مزينتان برسومات جميلة ومختلفة. أما من الخارج فلهما غطاء مصنوع من قماش أبيض يشبه قماش الخيام الأخرى²⁹.

وأما الخسائر البشرية التي أسفرت عنها المعركة فإن المصادر الفرنسية اختلفت حولها، فبالنسبة إلى الجيش الفرنسي، فذكرت بعض المصادر 57 قتيلا و473 جريحا³⁰، وذكر بعضها الآخر 53 قتيلا و140 جريحا³¹. أما بالنسبة إلى الجيش الجزائري فإن المصادر لم تستطيع أن تحدد ذلك، واكتفت بالقول بأنها كانت كبيرة بسبب عمليات القتل الواسعة التي كانت تحدثها المدفعية في صفوف الجزائريين³². وقد حاول بعض اصحاب تلك المصادر أن يعبر عن ذلك العدد الكبير بالأرقام فقال أنها بلغت نحو ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف³³. وكان السبب الرئيسي في عدم تمكن الفرنسيين من معرفة عدد القتلى والجرحى لدى الجزائريين، أنهم (أي الجزائريين) كانوا لا يتركون قتلاهم ولا جرحاهم في ميدان المعركة، وإنما يسحبونهم خارجه، فالجرحى يحملونهم بأيديهم، أما الموتى فيشددونهم بحبال ويسحبونهم بواسطة خيولهم³⁴. وهو العمل الذي استقطب مؤرخي الحملة الفرنسية كما سجلوا ذلك بوضوح في كتاباتهم، وفسروا ذلك بكون الجزائريين يعتبرون ذلك العمل واجبا يفرضه عليهم دينهم الإسلامي³⁵. ولكن مع أن ذلك العمل يعبر عن قيم عسكرية نبيلة كان يتحلى بها العسكريون الجزائريون، فإن هؤلاء المؤرخين لم يجدوا أي حرج في وصفهم بالبرابرة³⁶.

وأمام تلك الهزيمة الثقيلة التي مني بها الجزائريون في معركة أوسطه والي، انفتح الطريق أمام الفرنسيين نحو مدينة الجزائر. وهناك من ذكر آنذاك أن الجيش الفرنسي كان بإمكانه مواصلة زحفه نحو المدينة بعد المعركة، وكانت له القدرة على الوصول إليها واحتلالها في اليوم نفسه أو في اليوم الموالي من المعركة، ولكن القائد العام للحملة "الكونت دوبورمون"

²⁹ Ault-Dumensil, De l'expédition d'Afrique ..., op. cit., pp 57 – 58, 60 – 61 .

وبعد ذلك عبر الضابط الفرنسي (ص 61) عن التعصب الديني والثقافي الذي رافق الحملة الفرنسية، فأكمل وصفه لهزيمة الجزائريين وانتصار الفرنسيين عليهم في معركة أوسطه والي بالحديث عن القداس la messe الذي أقامه الجيش الفرنسي في شبه جزيرة سيدي فرج في اليوم الموالي ليوم المعركة (وهو يوم الأحد)، فقال: "إن ذلك القداس المسيحي كأنه جاء ليتوج عودة الحرية والحضارة اللتين أنجبهما الإنجيل de la liberté et de la civilisation, filles de l'Évangile, إلى هذه البلاد حيث كان يسود قبل ذلك ببضعة أيام فقط الاستبداد والبربرية اللذين أنجبهما القرآن le despotisme et la barbarie, enfants du koran".

³⁰ Desprez, Journal ..., op. cit., pp 109-110 ; Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., p 178

³¹ Rotalier, Histoire ..., op. cit., p 444

³² Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., p 178

³³ Rotalier, Histoire ..., op. cit., p 444 ; Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., p 178

³⁴ Desprez, Journal ..., op. cit., pp 111

³⁵ Rotalier, Histoire ..., op. cit., p 444

³⁶ Rotalier, Histoire ..., op. cit., p 444) ويقول صاحب المصدر في ذلك: Les Barbares enlevaient les morts et les blessés, et montraient souvent dans l'accomplissement de ce pieux devoir la plus grande hardiesse.

فضّل التريث وعدم المغامرة في مثل ذلك العمل، ورأى أن يكون سيره نحو المدينة بخطى محسوبة وثابتة³⁷. ولذلك تأجل احتلال الفرنسيين للمدينة بعد معركة أوسطه والي بستة عشر يوما أخرى، خاضوا فيها مناوشات متفرقة ضد الجزائريين، وفي يوم 14 محرم 1246 هـ / 5 جويلية 1830 م دقوا أبواب المدينة وأرغموا حسين باشا على توقيع معاهدة الاستسلام التي أنهت الوجود العثماني في الجزائر وأعلنت بداية عهد الاحتلال الفرنسي.

ثانيا: أسباب الهزيمة في المعركتين كما يراها المؤرخون:

إن أسباب هزيمة العثمانيين أمام الأوروبيين في معركتي فيينا في الثمّسا يوم السبت 20 رمضان 1094 هـ (12 سبتمبر 1683 م)، و"أوسطه والي" في الجزائر يوم السبت 27 ذي الحجة 1245 هـ (19 جوان 1830 م)، قد تناولتها الكتابات التاريخية المعاصرة آنذاك، كما تناولتها الكتابات الحديثة أيضا، من تركية وعربية وأوروبية. وهي تتلخص في مجملها وبشكل أساس في عدم كفاءة القيادة العامة للجيش، وغياب الانضباط في صفوف الجنود، وصعوبة الظروف المحيطة بالمعركة، وضعف التخطيط. وإذا أتينا إلى هزيمة فيينا فإننا نجد أسبابها حسب تلك الكتابات تتلخص في ثلاثة عناصر: أ السبب الأول هو الأنانية والطمع اللذان اتصف بهما قائد الجيش قره مصطفى باشا. ويعني ذلك أنه لم يكن له هدف عسكري عام يجسد فيه شخصية الدولة التي ينتهي إليها ويتولى فيها أعلى وظيفة سياسية وعسكرية بعد السلطان، وهي الصدارة العظمى ومعها قيادة الجيش، وإنما كان له هدف شخصي يتمثل في ميله لكسب الشهرة من جهة، والاستيلاء على كنوز فيينا من جهة ثانية، وسعيه لتأسيس مملكة مستقلة عن الدولة العثمانية تكون عاصمتها فيينا من جهة ثالثة. وكل ذلك دفعه إلى عدم السماح للجيش بالقيام بهجوم عام على المدينة والاكتفاء بحصارها لدفعها إلى الاستسلام له، وهدفه من ذلك منع نهبا على يد الجيش بعد الفتح، وانتقالها إلى يديه دون خسارة تلحقها أو ضرر يصيبها³⁸. والسبب الثاني الثاني هو خيانة القيادات الفرعية للجيش العثماني، والتي كانت تريد الإيقاع بقائد الجيش قره مصطفى باشا، ولا تودّ أن يعود إلى إستانبول منتصرا، وإنما ذليلا ليعاقب ويحكم عليه بالإعدام. وجسد تلك الخيانة خان القرم مراد كيراي الذي سمح لجيش الحلفاء بالمرور عبر الجسر الممتد على نهر الدانوب والوصول إلى ساحة القتال، ثم إبراهيم باشا حاكم بودين (بالمجر)، الذي انسحب من ميدان القتال وفر متوجها نحو الشرق³⁹. والسبب الثالث هو السأم الذي أصاب الجنود بسبب طول مدة الحصار وعدم تحقيق هدفهم بفتح المدينة، زيادة على انحرافهم وعدم انضباطهم، وتجلّى ذلك في انشغالهم بجمع الغنائم طوال مدة الحصار، ومعاشرتهم المفرطة للنساء، زيادة على تناولهم الخمر الكثير. وكل ذلك أثر على قدراتهم القتالية في المعركة، وسبّب في النهاية الهزيمة في المعركة⁴⁰.

³⁷ هذه الرؤية تذكرها المصادر الفرنسية التي أرخت للحملة (Desprez, Journal ..., op. cit., pp 113-114)، كما تذكرها المصادر الجزائرية المعاصرة آنذاك أيضا (الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 172).

³⁸ Uzunçarşılı (İsmail Hakkı), Osmanlı Tarihi, 3. Cilt, 1 kısım, 3. baskı, Ankara, TTK Basımevi, 1983, s. 441 :

أوزتونا (ييلماز)، تاريخ الدولة العثمانية، تعريب عدنان محمود سلمان، ج 1، إستانبول، مؤسسة فيصل للتموين، ص 534؛ وانظر أيضا: Hammer, Histoire ..., op. cit., pp 121-122

³⁹ أوزتونا، تاريخ ...، مصدر سابق، ص 531، 532، 534

⁴⁰ أوزتونا، تاريخ ...، مصدر سابق، ص 533.

والأسباب المذكورة في العنصرين الثاني والثالث، فكما ذكرت في الكتابات التاريخية التي تعود إلى عصرنا الحديث، فإنها ذكرت في كتابات أخرى معاصرة للمعركة أيضا، وهو ما نجده في يوميات تشريفاتجي باشي محمد آغا الذي رافق الجيش العثماني في الحملة إلى جانب الصدر الأعظم قره مصطفى باشا، وحضر معه أيام الحصار كما حضر المعركة أيضا⁴¹.

والسبب الرابع هو نفاذ المؤن الغذائية، سواء ما تعلق منها بالجنود، أم ما تعلق بالحيوانات التي يستخدمها الفرسان وفرقة المدفعية، من خيول وبغال وثيران⁴².

أما إذا أتينا إلى معركة أوسطه والي بالجزائر، فإن خير ما يبين أسباب الهزيمة فيها هو ما أورده حمدان بن عثمان خوجه المعاصر آنذاك⁴³، ثم الدكتور أبو القاسم سعد الله في عصرنا الحديث⁴⁴. وملخص تلك الأسباب نجدها في كتاب التاريخ المدرسي المخصص لتلاميذ السنة الرابعة من التعليم المتوسط بالجزائر، وهي كما يأتي:

1. إسناد القيادة العامة لقائد غير كفء سمح بخطته الهزيلة، لجنود الحملة بالنزول إلى البر، ولم يوافق على الخطة التي قدمها مساعدوه له والمتمثلة في مواجهتهم بالقتال عند لحظة الإنزال. وذلك القائد غير الكفاء هو إبراهيم آغا صهر حسين باشا الذي عُين على رأس الجيش بدلا من يحيى آغا الذي ظل يشغل ذلك المنصب مدة اثني عشرة سنة.
2. إبقاء القبائل المتطوعة للقتال بعيدا عن المدينة بهدف التخفيف من النفقات المالية.
3. خطأ الداوي وديوانه العسكري في تنظيم الدفاع، واعتقادهم أن التحصن في قلاع العاصمة هو الخطة الحربية المناسبة⁴⁵.

ثالثا: أسباب الهزيمة في المعركتين كما يظهرها الواقع التاريخي:

أ - القوة القتالية لدى الجيوش من قوة مجتمعاتها:

إن الحرب هي من جميع أوجهها فعل تقوم به فئتان من الناس تعملان تحت قيادتين، ويتبادلان أثناء القتال بينهما بواسطة السلاح. وذلك الفعل هو الذي نصلح عليه عليه هنا بالفعل القتالي. وهو المجال المناسب لتفسير النتائج التي تسفر عنها الحروب، سواء كانت هزيمة أم انتصارا. ويبدو أن هذه الصورة للحرب تنطبق على الحروب في الماضي، كما تنطبق عليها في العصر الحديث، وفي المستقبل أيضا. ومن ثم فلكي نتبين أسباب الهزيمة التي تعرض لها جيش من الجيوش على يد جيش آخر، أو الانتصار الذي حققه عليه، فينبغي أن يكون لدينا مفهوم محدد للفعل العسكري. إذ هو ليس مجرد تحريك لأدوات الحرب من جنود وسلاح، وإنما هو فعل أكبر من ذلك بكثير، إذ تتحكم فيه مؤثرات كثيرة

⁴¹ راجع عمله في:

Kreutel (Richard F.), Viyana önlerinde Kara Mustafa Paşa, çeviren, Müjdat kayayerli, İstanbul, Esra yayınları, 1994 .

وبين محمد آغا الأسباب التي كانت وراء الهزيمة التي لحقت الجيش العثماني في المعركة، في أربعة عناصر. (راجعها في المصدر نفسه، ص 99 – 105).

⁴² Uzunçarşılı, Osmanlı Tarihi, g. e., s 449

⁴³ حمدان بن عثمان خوجه، المرأة، عربه محمد بن عبد الكريم، بيروت، مكتبة الحياة، 1972 م، ص 155 – 165.

⁴⁴ سعد الله (أبو القاسم)، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ط 3، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982 م، ص 36 – 43.

⁴⁵ مجموعة من الأساتذة، تاريخ المغرب العربي الحديث، الجزائر، سلسلة التاريخ المدرسي، السنة الرابعة متوسط، الجزائر، المعهد التربوي الوطني، 1982. 1983 م، ص 57. 58.

وعوامل متعددة، بعضها معنوية، وبعضها مادية، وبعضها تكتيكية. فالمؤثرات والعوامل المعنوية هي بشكل عام الأفكار التي يتبناها كل واحد من طرفي القتال وبموجبها يرى أنه صاحب الحق في تلك الحرب، وهي في مجملها أفكار دينية وسياسية غرضها تقوية إرادة القتال لدى الجيش المحارب؛ أما المؤثرات والعوامل المادية فهي السلاح وآلات القتال المختلفة المستخدمة في مواجهة العدو، وأما المؤثرات والعوامل التكتيكية فهي الفنون المستخدمة في العمليات القتالية بشكل عام، من تنظيم للجيش وتخطيط للمعركة واختيار لطرق القتال. وإذا كانت المؤثرات والعوامل المعنوية هي وسائل يستوحى منها الجيش من رصيد المجتمع التاريخي والديني والسياسي، فإن المؤثرات والعوامل المادية والتكتيكية هي وسائل يستوحى منها رصيده في التقدم الحضاري القائم على المعرفة والصناعة. وفي هذا الجانب الأخير (المادي والتكتيكي) يكمن في معظم الأحيان القسط الأكبر من القوة القتالية للجيش المحارب. وفي ضوء مستوى تلك المؤثرات والعوامل تتحدد قوة الجيش، ويتضح مصيره في المعركة التي يخوضها: فإما الانتصار وإما الهزيمة⁴⁶. ومن ثم يتبين لنا أن الفعل العسكري ليس فعلا فرديا منعزلا يقوم به الجيش في ميدان المعركة دون أن يشاركه فيه أي طرف آخر خارجي، وإنما هو فعل اجتماعي يقوم به الجيش نيابة عن المجتمع الذي ينتهي إليه، ويوظف فيه طاقات ذلك المجتمع الحضارية الشاملة، من دين وسياسة وثقافة وقيم وفنون وعلوم وصناعات (تكنولوجيا). ومن ثمة تبدو لنا العلاقة الوطيدة بين الجيش والمجتمع الذي ينتهي إليه. ويعني ذلك أن الجيش العثماني الذي قاتل في فيينا (1683 م) وأوسطه والي (1830 م) إنما كانا يمثلان المجتمع العثماني آنذاك، أما الجيش النمساوي والبولوني في معركة فيينا، والجيش الفرنسي في أوسطه والي، فكانا يمثلان المجتمع الأوروبي. ويعني ذلك أن المعركتين إذا كانتا في ظاهرهما مواجهة عسكرية بين جيشين، فإنهما في الباطن كانتا مواجهة بين مجتمعين. ومن ثمة فإن البحث عن أسباب النتيجة التي أسفرت عنها المعركتان، لا يكون في مكونات الجيشين المتحاربين، والظروف التي وقعت فيها المعركتان، وإنما في يكون المجتمعين اللذين ينتهي إليهما الجيشان المتحاربان، وذلك من خلال معرفة مستوى التقدم الحضاري الذي كان عليه كل واحد منهما بالنسبة إلى الآخر، وكان جيشه يستمد منه القوة القتالية التي وظفها في الفعل العسكري في ميدان المعركة. وإن الاختلال وعدم التكافؤ والتوازن الذي كان حاصلًا في مستوى التقدم الحضاري بين المجتمع الأوروبي والمجتمع العثماني في العهد الذي تعود إليه المعركتان، قد امتد من غير شك أثره إلى ميدان القتال بين جيشيهما في "فيينا" و"أوسطه والي"، وهو الذي كان وراء تحديد نتيجة المعركتين ومصير كل واحد من الجيشين المتحاربين فيهما، وليس غيره. ذلك أن الجيشين المتحاربين: الأوروبي والعثماني، اللذين جمعتهم المعركتان إذا كانا من جهة يمثلان منظومتين مختلفتين دينيا وسياسيا واجتماعيا وجغرافيا، فإنهما من جهة أخرى يمثلان مستويين مختلفين أيضا من حيث القوة القتالية المستمدة من التقدم الحضاري للمجتمع الذي ينتهي إليه كل منهما، فأحدهما كان مجتمعا متقدما وهو المجتمع الأوروبي، وآخر كان متخلفا وهو المجتمع العثماني. ومن ثم فإن المواجهة في المعركتين كانت بصورة أخرى مواجهة بين والتقدم والتخلف، ويعني ذلك بلغة عسكرية بين القوة والضعف. وتلك الصورة هي التي عبّر عنها أحمد باي (حاكم مقاطعة الشرق في الجزائر) لما قدم من قسنطينة إلى مدينة الجزائر في جوان 1830 م، وصادف وصوله إليها نزول الحملة الفرنسية في شبه جزيرة سيدي فرج، فأمره حسين باشا بالتوجه إلى هناك على رأس محلّته لمقاتلة الفرنسيين برفقة إبراهيم آغا الذي عينه قائدا عاما للجيش الجزائري. وهنا يذكر أحمد الشريف الزهار أن أحمد باي لما نزل في ضواحي "سيدي فرج" وشاهد الجيش الفرنسي فإنه "كتب

⁴⁶ والقوة العسكرية تلك هي التي تحدث عنها الله عز وجل في قوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلَبُونَ" (سورة الأنفال/ الآية 60).

للباشا يخبره بقوة النصارى وبضعف جيوشنا، ويستأذنه برجوع محلة الشرق للجزائر، فأذن له، ورجعت المحلة⁴⁷. وبناء على ذلك فإننا لكي نفهم أسباب هزيمة الجيش العثماني في معركة فيينا وأوسطه والي، فإن علينا نجيب على السؤال الآتي: ما هي مظاهر التقدم الحضاري التي كان يتوفر عليها المجتمع الأوروبي، واستمد منها الجيش الأوروبي قوته القتالية في المعركتين؟

ب - مظاهر القوة الاجتماعية المؤثرة في القوة القتالية للجيشين الأوروبي والعثماني:

1 - ثورة الطباعة:

نقصد بثورة الطباعة الانقلاب الكبير الذي حدث في أوروبا في عالم الكتاب الذي يقوم عليه انتشار الثقافة والفكر والتعليم والمعرفة في المجتمع. وتم ذلك بفضل آلة الطباعة التي اخترعت في منتصف القرن الخامس عشر (1452 م). وكما هو معلوم أن المجتمع الأوروبي قد سادته في ذلك القرن صحوة عقلية عالية صار الإنسان بموجبها يُقدّر في المجتمع ليس بانتمائه الاجتماعي وثروته ووظيفته، وإنما بما يُقدّمه للمجتمع من خدمة ترفع من مستوى حياته، وتُحسن معيشته، وتحل مشاكله، وتحمي صحته، وتحفظ أمنه، وتُطوّر اقتصاده، وتُنمّي فكره وثقافته، وتحفظ حريته، وتُسهّل عليه مجابهة الطبيعة والتغلب على عوائقها في البر كما في البحر. وتلك الصحوة هي التي اصطّح عليها باسم النهضة. ووسط تلك الصحوة، وفي ذلك التاريخ بالتحديد، تم التوصل إلى تحقيق واحد من أكبر الاختراعات في تاريخ البشرية ويتمثل في آلة الطباعة، وهو الاختراع الذي تم بمدينة "ماينس" الألمانية على يد المهندس غوتنبورغ، وجاء مكملًا لعملين حضاريين آخرين سابقين له هما: اكتشاف صناعة الورق، وتأسيس مؤسسات التعليم العالي التي تسمى الجامعات. وبذلك توفرت الوسائل الأساسية لانتشار الكتاب الذي يعد أهم وسيلة تعليمية في المجتمع. فظهر في المجتمع الأوروبي من يؤلفه، ومن يصنعه، ومن يوزعه في أرجاء القارة، ومن يشتريه ويقرؤه. وهكذا تأسست المطابع التي تهتم بطبع الكتاب في مختلف المدن الأوروبية، وكان منها مدينة "فيينا" عاصمة النمسا، التي حاصرها العثمانيون عام 1094 هـ / 1683 م، فأُسست بها أول مطبعة عام 1482 م⁴⁸، ومدينة "كراكوفيا" عاصمة بولندا (بولونيا) التي شارك جيشها بقيادة ملكها صوبيسكي Sobieski، إلى جانب النمساويين في صد العثمانيين عن فيينا، فأُسست بها أول مطبعة عام 1474 م⁴⁹، وأما باريس عاصمة فرنسا (التي تحمل جنسيتها الملكة ماريات Mariette زوجة الملك البولوني صوبيسكي المذكور، وبها تربى وتلقى تعليمه وتدريبه على القتال الأمير الشهير أوجان دو صافوا Eugène de Savoie الذي كان أحد أبرز من قاتل العثمانيين قرب أسوار "فيينا"، وبعدها في المجر و صربيا لما تشكل الحلف الأوروبي ضد العثمانيين، وهي كذلك (أي فرنسا) التي هُزم جيشها الجيش الجزائري العثماني في معركة أوسطه والي بالجزائر عام 1830 م)، فإن المطبعة الأولى التي أُسست بها تعود إلى عام 1470 م، وكذلك الحال في البندقية التي كانت إحدى القوى الأساسية في تشكيل الحلف الأوروبي ضد العثمانيين بعد معركة فيينا. وهكذا ظلت المطبعة تنتشر في أوروبا حتى عمت أغلب مدنها، وما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى بلغ عدد المدن التي أُنشئت بها المطابع في القارة مائتين وستين (260) مدينة، أما عدد المطابع التي كانت تعمل في تلك

⁴⁷ الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 172.

⁴⁸ Revue française d'histoire du livre, société des bibliophiles de Guyenne, Bordeaux, N° 110-111/2001, p 251 ; Dupont (Paul), Histoire de l'imprimerie, T.2, Paris, Toux les Libraires, 1854, p 566

⁴⁹ Chodzko (Léonard), la pologne, 6e éd., Paris, Bureau Central, 1846, p 454

مع العلم أن مصادر أخرى تورد عام 1485 م، وأخرى تورد عام 1503 م.

المدن فبلغ عددها ألفين ومائة (2100) مطبعة⁵⁰. وكمثال على انتشار المطبعة في الدولة الواحدة فإن فرنسا بلغ عدد المدن التي أسست بها المطبعة في عام 1500 م، سبعا وأربعين (47) مدينة، أضيف إليها خلال القرن السادس، عشر خمسا وتسعين (95) مدينة أخرى. وليس ذلك فحسب، وإنما تعددت المطابع في المدينة الواحدة، وصار هناك في عام 1500 م، من المدن التي وُجد بها عشرات المطابع، وذلك مثل مدينة ليون حيث بلغ العدد بها خمسين (50) مطبعة، وباريس حيث بلغ خمسا وثلاثين (35) مطبعة⁵¹.

وكانت الخدمات التي قدمتها الطباعة للمجتمع الأوروبي في ذلك العصر هي الخدمات نفسها التي تقدمها لكل العالم في عصرنا الحديث، ويتمثل معظمها في تيسير سبل التعليم لأفراد المجتمع في المؤسسات التعليمية وخارجها. وذلك بأن طورت صناعة الكتاب وجعلتها أكثر إنتاجا مما كانت عليه من قبل لما كان نشر الكتاب يُعتمد فيه على النسخ اليدوي (أي المخطوط). وحسب إحدى الدراسات فإن أربعة ملايين (4000000) نسخة من الكتب المختلفة وُزعت في أوروبا حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، أي بعد أقل من نصف قرن فقط من اختراع آلة الطباعة. وأشارت دراسة أخرى أن اثنين وعشرين مليوناً وتسعمائة واثنين وثلاثين ألف (22932000) نسخة من كتب مختلفة تتناولت اثنين وثلاثين ألفاً وخمسمائة واثنين وثلاثين (32532) موضوعاً، وُزعت بين سنتي 1467 و1547 م (أي في خلال ثمانين سنة فقط). وذكرت دراسة ثالثة أن الخمسين سنة التي تلت صدور التوراة ذي الاثنين والأربعين سطراً والذي نشره غوتنبرغ في عام 1455 م، قد عرفت صدور خمسة وثلاثين ألف (35000) طبعة لكتب مختلفة بلغ مجموع نسخها بين خمسة عشرة وعشرين مليوناً. وحسب الدراسة نفسها فإن المائة سنة التالية بين عامي 1500 و1600 م قد عرفت صدور بين مائة وخمسين ومائتي ألف طبعة لكتب أخرى. وبمعدل ألف نسخة فقط لكل طبعة فإننا نجد أن أوروبا طبع بها بين مائة وخمسين ومائتي مليون نسخة من الكتب في تلك الفترة. وحسب دراسة أخرى فإن مطابع باريس وحدها أصدرت في الفترة نفسها (القرن السادس عشر) خمسة وعشرين ألف (25000) طبعة لكتب مختلفة، وأصدرت مطابع ليون في الفترة نفسها أيضاً ثلاثة عشر ألف (13000) طبعة لكتب أخرى⁵². وكان ذلك كله قبل عام 1683 الذي حاصر فيه العثمانيون عاصمة فيينا. وإذا تقدمنا نحو القرن التاسع عشر، وبالتحديد إلى عام 1245 هـ / 1830 م حيث وقعت معركة "أوسطه والي" بالجزائر، بين الفرنسيين والجزائريين، فإن واقع الطباعة في أوروبا نجده قد تطور أكثر. ويكفي للدلالة على ذلك أن نقدم معلومات عن ذلك الواقع تتعلق بفرنسا التي هزمت الجزائريين في تلك المعركة، واحتلت بلادهم بعدها. فحسب

⁵⁰ ستيتشفيش (ألكسندر)، تاريخ الكتاب، القسم الثاني، ترجمة محمد الأرنؤوط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1413 هـ / 1993 م، ص 89-104؛ وراجع أيضاً:

Printing, in: Encyclopaedia Britannica, vol. 18; Audin (Maurice), Histoire de l'imprimerie, Paris, Picard, 1972, p 118-120; Chauvet (Paul), Les ouvriers du livre en France des origines à la révolution de 1789, Paris, P.U.F., 1959, p 6.

⁵¹ ستيتشفيش، تاريخ الكتاب، مصدر سابق، ص 89-104؛ وراجع أيضاً:

Printing, in: Encyclopaedia Britannica, vol. 18; Audin, Histoire de l'imprimerie, op. cit., pp 118-120; Chauvet (Paul), Les ouvriers du livre en France des origines à la révolution de 1789, Paris, P.U.F., 1959, p 6..

⁵² ستيتشفيش، تاريخ الكتاب، مصدر سابق، ص 111. وراجع أيضاً:

Chauvet (Paul), Les ouvriers du livre en France des origines à la révolution de 1789, Paris, P.U.F., 1959, p 6; Daumas (Maurice), Histoire générale des techniques, T.2, les origines de la civilisation technique, Paris, P.U.F., 1962, pp 664-665

⁵² Coolen (Georges), La diffusion de la pensée du temps des manuscrits à la bible de Gutenberg, ext. Du Bull. de la Soc. Des Antiquaires de la Morinie, T.20, 1963, p 44; Larivaille (Paul), Le 16° siècle italien, Paris, Seghers, 1971, pp 70-71;

الإحصاءات التي قدمها الباحثون الفرنسيون فإن عام 1825 م لوحده شهد طبع بين ثلاثة عشر وأربعة عشر مليون نسخة من الكتب، وكان منها أكثر من أربع مائة ألف (400000) نسخة طبعت في مطبعة فيرمين ديدو Firmin Didot الشهيرة بباريس، والتي كان يشتغل بها ثلاثة وثلاثين ألفاً وسبع مائة وخمسين (33750) عاملاً⁵³. وبحساب العناوين فإن مطابع فرنسا أصدرت في السنة المذكورة سبعة آلاف وست مائة وخمسة (7605) من العناوين، وفي السنة الموالية (1826 م) أصدرت ثمانية آلاف ومائتين وثلاثة وسبعين (8273) عنواناً⁵⁴. وبحساب الورق فإن تلك المطابع أصدرت بين عامي 1813 و 1825 م أكثر من مليار ومائة مليون ورقة، (وبالتحديد: 1.152.295.237 ورقة)، من بينها نحو 56 مليون ورقة (وبالتحديد 56.215.692 ورقة) استغلت في طبع الصحف والمجلات الإخبارية، والباقي استغل في طبع الكتب بمختلف موضوعاتها العلمية والأدبية والقانونية والدينية ونحوها⁵⁵، ونسبة ذلك 95 %.

وقد انعكس عمل المطبعة على القوة العسكرية الأوروبية من جوانب متعددة: أحدها التعليم العسكري في المدارس الحربية التي أنشئت في مختلف دول القارة كما حدث في فرنسا، حيث استُغلت في توفير المؤلفات المتخصصة التي تغطي المقررات التعليمية في تلك المدارس، وتنشر فيها الأبحاث التي تتناول الاختراعات والابتكارات العسكرية، وكان الطلبة يجدونها في المكتبات العامة أو يشترونها بأنفسهم من الأسواق. فتذكر الإحصاءات المتعلقة بنشر الكتاب في فرنسا لعام 1825 م، أن من ضمن ستة آلاف ومائة وثلاثة وأربعين (6143) عنواناً نشر في تلك السنة، كان منه مائة وستة (106) عناوين تتعلق بالإدارة والتاريخ العسكري Administration et histoire militaire. وهناك إحصاء آخر يتعلق بالسنة الموالية (1826 م)، وخصص لتحديد كمية الورق المستخدمة في الطباعة، فجاء فيه أن من بين نحو مائة وأربعة وأربعين (144) مليون ورقة (وبالتحديد 144561094 ورقة) استخدمت في طبع المؤلفات في تلك السنة، كان منها مليون ونصف (1,5 مليون) ورقة (وبالتحديد 1445982 ورقة) استخدمت في طبع المؤلفات التي تتناول الموضوعات العسكرية écrites militaires، ونسبتها (1 %) ⁵⁶. ومن الأمثلة التي نسوقها هنا حول تلك المنشورات "نشرية العلوم العسكرية Bulletin des sciences militaires" التي تأسست في عام 1824، وصدر منها حتى عام 1831 م عشر مجلدات؛ ثم "مجلة العلوم العسكرية Journal des sciences militaires". التي تأسست في عام 1825 م، وصدر منها حتى عام 1830 (تاريخ احتلال الجزائر) تسعة عشر (19) مجلداً، يحتوي كل منها على أكثر من 400 صفحة؛ ثم مجلة "المُشاهد العسكري Le Spectateur militaire" التي تأسست في عام 1826 م، وصدر منها حتى عام 1830 عشرة مجلدات. وكان يدير تلك المجلات العسكرية ضباط في الجيش الفرنسي لهم مستوى عال في التكوين العلمي والعسكري، وكان منهم الجنرال "غيلوم دو فودونكور Guillaume de Vaudoncourt"، الذي تولى إدارة مجلة العلوم العسكرية منذ صدور العدد الأول منها عام 1825 م، وكان آنذاك قائداً لفرقة المدفعية، وظل كذلك حتى عام 1830 م، حيث صار ضابطاً متقاعدًا وعضواً في الأكاديمية الملكية للعلوم العسكرية في السويد.

وكان يساهم في الكتابة في تلك المجلات باحثون عسكريون ومدنيون، متخصصون في علوم متعددة لها علاقة بالميدان العسكري: من صناعة للسلاح، وإدارة للحروب، وتنظيم ل وحدات الجيش، وأنظمة قتالية، وصحة عسكرية،

⁵³ Dalery (M), Venise et ses environs, Bruxelles, Hauman, 1842, p 75, n 1

⁵⁴ Lesur (C.L.), Annuaire historique universel pour 1826, Paris, A. Thoissier-Desplaces, 1827, p 266 - 267

⁵⁵ Lesur, Annuaire ... pour 1826, op. cit., pp 267

⁵⁶ قدّم تلك الإحصاءات أحد رجال الدولة والأدب في فرنسا آنذاك وهو الكونت داري Comte Daru (1767 - 1829 م)، راجعها في:

Lesur, Annuaire ... pour 1826, op. cit., p 266 - 267

وفضلاً عن نشر المؤلفات والأبحاث المتعلقة بالمعارف العسكرية، فإن المطبعة صارت تُستغل في طبع المنشورات التي توزع على الجنود والضباط الذين يشكلون الحملات العسكرية، بهدف تعريفهم بالأرض التي سيحاربون فيها، والجيش الذي سيواجهونه، والاحتياجات الصحية والأمنية التي عليهم اتخاذها، والأهداف التي سيحاربون من أجلها، وغير ذلك من الموضوعات التي تسهم في توجيه الحملات العسكرية والتحكم في إدارتها، وتساعد على تحقيق أهدافها. وهذا ما وُجد في الحملة الفرنسية على الجزائر في عام 1830 م، حيث طبع كتاب خاص يتعلق بالجزائر يُعرِّف بها من جوانب متعددة: جغرافية وتاريخية وثقافية ودينية واقتصادية وسياسية وعسكرية وبشرية، وغيرها. ودُعم ذلك الكتاب بخرائط ومعطيات إحصائية توضح تلك الموضوعات جميعها. وبلغ حجم الكتاب 237 صفحة، وسمي: (وصف تاريخي وإحصائي وطوبوغرافي للجزائر لفائدة الحملة الإفريقية)⁵⁸. ولتوسيع دائرة الإعلام حول الحملة على الجزائر فإن ذلك الكتاب طُبِع في سنة 1830 لوحدها ثلاث مرات. ويعني ذلك أن توزيعه تجاوز محيط الجيش الذي شكل الحملة، فشمّل محيط المدنيين في المدن الفرنسية أيضاً. وزيادة على الكتاب المذكور، فإن قيادة الحملة وزعت مطبوعات أخرى على الجنود والضباط تمثلت في قوائم بالكلمات العربية والتركية الرئيسية المستخدمة في الجزائر، ومنشورات تتضمن تعليمات مختلفة حول الإجراءات العسكرية والصحية اللازم اتخاذها أثناء القتال⁵⁹. وليس ذلك فحسب بل إن المطبعة استُخدمت في طبع منشور وُزِع على الجزائريين حرره مترجمو الجيش الفرنسي، وبينوا فيه أهداف الحملة الفرنسية على بلادهم، وذلك كنوع من الحرب النفسية عليهم لفصلهم عن السلطة العثمانية وإبعادهم عن المقاومة ودفعهم للاستسلام للجيش الفرنسي⁶⁰.

57 راجع أمثلة عن تلك البحوث وأصحابها في الملحق ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

⁵⁹ Desprez (François A.), *Journal d'un officier de l'Armée d'Afrique*, Paris, Chez Anselin, 1831, p. 51.

⁶⁰ راجع صورة من ذلك المنشور الذي طبع بالطريقة الحجرية، في: الشريف الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 177.

61 حول تفاصيل ذلك راجع:

دوبورمون De Bourmont. وكان آخر عدد صدر من تلك الصحيفة هو الذي طبع يوم 5 جويلية 1830 م، حيث سقطت مدينة الجزائر في يد الجيش الفرنسي.⁶²

وإذا أتينا إلى الدولة العثمانية التي كانت تمثل العالم الإسلامي في ذلك العصر، فإننا نجد أنه في الوقت الذي كانت آلة الطباعة قد أحدثت في قارة أوروبا منذ اختراعها في عام 1452 م. كما سبق الإشارة. ثورة كبرى في عالم الكتاب الذي يعتبر أهم وسيلة لنشر المعرفة والثقافة بين أفراد المجتمع، أقول فإن الدولة العثمانية ظلت متأخرة عن استخدام ذلك الاختراع والاستفادة منه في نشر المعرفة بين أفراد مجتمعيها لعشرات العقود من الزمن بعد ظهوره في أوروبا، وذلك حتى عام 1727 م حيث تم تأسيس أول دار للطباعة في إستانبول في عهد السلطان أحمد الثالث. وتقدر مدة ذلك التأخر بـ 276 سنة من ظهور ذلك الاختراع في مدينة ماينس بألمانيا. بينما لم يتجاوز ذلك التأخر بالنسبة إلى فيينا التي حاصرها العثمانيون في عام 1683 م، سوى بـ 22 سنة، إذ أن آلة الطباعة أدخلت إليها. كما سبق الإشارة. في عام 1474 م. ويعني ذلك أن العثمانيين تأخروا عن النمساويين في استخدام ذلك الاختراع بـ 254 سنة. وإذا علمنا أن ذلك التأخر قد تقلص إلى مدة 45 سنة فقط بعد حصارهم لمدينة فيينا والذي كان في عام 1683 م، فإننا نعلم الأثر الإيجابي الذي أحدثه فيهم ذلك الحصار. وأما مدينة الجزائر التي استولى عليها الفرنسيون بعد معركة أوسطه والي في عام 1830 م، فإنها لم تعرف ذلك الاختراع مطلقا حتى تمت عملية الاحتلال، وكانت أول مطبعة أدخلت إلى أراضيها هي التي استقدمها معه الجيش الفرنسي المحتل.

وحتى بعد إدخال آلة الطباعة إلى العاصمة إستانبول، فإنها لم تنتشر في المدن العثمانية الأخرى كما حدث في أوروبا، وإنما اقتصر استخدامها على إستانبول فقط. وكانت دار الطباعة الثانية التي أسست في الدولة تلك الفترة هي التي أسسها محمد علي باشا والي مصر في مدينة بولاق قرب القاهرة عام 1822 م. ومن جهة ثانية فإن نشاط تلك المطبعة العثمانية قد ظل بعد تأسيسها عام 1727 م محدودا جدا، وبقي دون المستوى بكثير بالمقارنة بنشاط المطابع الأوروبية. فمن بداية عمل تلك المطبعة عام 1728 م، وحتى عام 1830 م حيث وقع احتلال مدينة الجزائر، وهي مدة تقدر بمائة وستين، فإن المطبعة لم تعمل بصورة مستمرة، وإنما توقفت لمدة 27 عاما امتدت بين سنتي 1756 و 1783 م، وذلك لأسباب تتعلق بالحروب وانشغالات الدولة الداخلية والخارجية. وبلغ عدد المؤلفات التي طبعت خلال تلك المدة كلها 98 مؤلفا فقط، بعضها يتشكل من مجلدين، وبعضها من مجلد واحد.⁶³ بينما طبع في فرنسا بمفردها في عام واحد وهو 1825 م ما قدره 7605 من المؤلفات، وطبع في السنة الموالية 8273 مؤلفا، وكان منها 105 مؤلفا يتعلق بالرحلات لوحدها، وهو بمفرده يفوق العدد الذي يمثل المؤلفات التي طبعت في إستانبول طوال مائة سنة كما سبق الإشارة.

2 - التقدم العلمي:

إن الثورة التي أحدثتها آلة الطباعة في عالم الكتاب في أوروبا، لم تنبع في الواقع من آلة الطباعة ذاتها، وإنما من الانقلاب الذي حدث في العقل الأوروبي الذي تحول بداية من القرن الرابع عشر الميلادي، من عقل جامد وخامل وكسول إلى عقل مفكر ومخترع ومبدع. ورافق ذلك التحول العقلي توجه ثقافي جديد في المجتمع، كانت إحدى صوره التنوع في حقول المعرفة، وارتباطها بحاجات المجتمع والدولة. ومن ثم ظهر البحث في الظواهر الطبيعية بمختلف صورها،

⁶² Fiori (Hermann), Bibliographie des ouvrages imprimés à Alger de 1830 à 1850, Blida (Algérie), Chez l'auteur, 1938, p 17-18

⁶³ Ubicini (A), lettres sur la Turquie, 1ere partie, 2° éd., Paris, J. Dumaine, 1853, pp 243-249

السياسية والاقتصادية والعسكرية والأدبية والاجتماعية والكونية⁶⁴، بغية تفسيرها وإخضاعها لإرادة الإنسان وتسخيرها في خدمته. وهكذا ظهرت في أوروبا فئة واسعة من العلماء المخترعين والمبدعين في شتى أصناف المعرفة، تُمثل بحق المستوى الثقافي والفكري العالي الذي وصل إليه المجتمع الأوروبي. وهو الوضع الذي كان يفتقده المجتمع الإسلامي آنذاك ومنه المجتمع العثماني. وللدلالة على ذلك يكفي أن نذكر أن السنة التي حاصر فيها العثمانيون مدينة فيينا، لوحدها، وهي سنة 1683 م، كان يعيش في أوروبا بشكل عام ما لا يقل عن 34 (أربعة وثلاثين) عالما في العلوم الطبيعية والرياضية لوحدها، وكان هؤلاء العلماء كلهم مخترعون ومبدعون، وسجلت لنا مصادر التاريخ اختراعاتهم وإبداعاتهم، وعلمها تأسست كثير من مظاهر التقدم الحضاري التي نعيشها في العصر الحديث. ونذكر من هؤلاء العلماء العالم الإنكليزي إسحاق نيوتن (ت 1727 م)، مكتشف قانون الجاذبية الكونية، وستيفن كراي (ت 1736 م) مكتشف ظاهرة تولّد الكهرباء بواسطة الاحتكاك، وصاحب أول تجربة لنقل الكهرباء، والعالم الفرنسي غيلوم أمونتون (ت 1705) صاحب مفهوم الصفر المطلق في درجة الحرارة، والألمانيان كبريال فخرنخ (ت 1736 م) مخترع السُّلّم الحراري ذو النقطتين الثابتتين، وأتو فون كيريك (ت 1686 م) الذي شرح ظاهرة الضغط الجوي وصاحب التجربة الشهيرة حول فصل أنصاف الكرات الفارغة من الهواء، والهولنديان هرمن بورهيف (ت 1738) مؤسس علم الطب الاكلينيكي، وكريستيان هوكن (ت 1695 م) مكتشف حلقة كوكب زحل والقمر التابع له، ومخترع ميزان دولاب الساعة، وواضع مفهوم القوة المركزية الطاردة، ونظرية التموج

وأما إذا أتينا إلى عام 1830 م حيث وقعت معركة أوسطه والي، فإننا نجد أوروبا قد خطت خطوات أخرى أكبر من سابقتها في طريق التقدم العلمي، ووصلت إلى مستوى أكثر تطوراً مما كانت عليه في عام 1683 م. وللدلالة على ذلك فإن فرنسا بمفردها كان يعيش فيها في تلك السنة (1830م) ستة عشر (16) عالماً في علوم الطبيعة والتكنولوجيا، وكان منهم الكيفي لوى براى (1809 . 1852) مخترع الحروف الخاصة بالمكشوفين، والتي تُعرف باسمه إلى يومنا هذا، ثم أندري

64 يمكن أن نستخلص ذلك التنوع في المعرفة من خلال موضوعات المؤلفات التي كانت تطبع آنذاك، وهو ما تبينه دراسة أُجريت حول أصناف المؤلفات التي طبعت في شبه الجزيرة الإيبيرية بين عامي 1473 و1500 م، ثم بين عامي 1501 و1536 م، فوجد أنه في الفترة الأولى صدر (446) كتابا (أي عنوانا)، كان منها (217) كتابا (48,6 %) في اللاهوت، و(60) كتابا (13,4 %) في الآداب، و(45) كتابا (10%) في القانون، و33 كتابا (7,4 %) في الفلسفة، و(29) كتابا (7,4 %) في البلاغة والتربية، و(15) كتابا (3,3 %) في الطب، و(14) كتابا (3,1 %) في الموسيقى والجغرافيا والرياضيات. وصدروا في الفترة الثانية (744) كتابا، كان منها (263) كتابا (35,3 %) في اللاهوت، و(119) كتابا (16%) في الآداب، و(63) كتابا (8,4 %) في القانون، و (83) كتابا (11,1 %) في الفلسفة، و(52) كتابا (6,9 %) في التاريخ، و(85) كتابا (11,4 %) في البلاغة والتربية، و(23) كتابا (3,4 %) في الطب، و(14) كتابا (1,8 %) في الموسيقى، و(18) كتابا (2,4 %) في الجغرافيا، و(16) كتابا (2,1 %) في الرياضيات، و(8) كتب (1 %) في الشعر (يرفع الشين والعين). (ستبيتشفيتش، تاريخ الكتاب، مصدر سابق، ص 121). وتوزعت المؤلفات المطبوعة في فرنسا عام 1826 م، والتي بلغ عددها 8273 مؤلفا، على أكثر من ثلاثين موضوعا معرفيا شملت: الدين، والقانون، والتاريخ الطبيعي، والاقتصاد الريفي، والإدارة، والتاريخ العسكري، والفنون، والصناعات، والأدب، والشعر، واللغات، وتاريخ الشعوب، والمذكرات، والكتب المهداة، والرحلات، والفلسفة، والمسرح، والرواية، والأساطير، وتاريخ الشعوب، وتاريخ فرنسا، والآثار، والاقتصاد، والتجارة، والفيزياء، والكيمياء، والطب، والتشريح، والبيطرة، والزراعة، والحيوان، والرياضيات، والفلك، وموضوعات أخرى. (راجع توزيع تلك الكتب في:

Lesur (C. L.), *Annuaire historique universel pour 1830, Appendice, 1ere partie*, Paris, Thoissier – Desplaces, 1832, p 267

65 استخرجنا قائمة لهؤلاء العلماء بالاعتماد على:

Mémo Larousse, Encyclopédie générale visuel et thématique, Paris, Larousse, 1990, pp 849-912 .

مراجعة قائمة هؤلاء العلماء ومكتشفاتهم في الجدول الملحق بهذا العمل ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

ماري امبير André-Marie Ampère الذي كان رياضيا وفيزيائيا وكيميائيا، وإليه يعود فضل اكتشاف القوانين المنظمة للعلاقة بين الكهرباء والمغناطيس، وباسمه صارت تعرف وحدة قياس شدة التيار الكهربائي، وهي (الأمبير)، ثم لوي باستور (1822 . 1895 م) صاحب الإنجازات الكثيرة في علم الأحياء المجهرية، وبواسطة اكتشافاته المهمة عرف علم الطب تطورا ملموسا، وبصفة خاصة في معرفة أسباب الأمراض وسبل الوقاية منها بواسطة اللقاحات، وإليه تنسب طريقة تعقيم المواد الغذائية لحمايتها من التعفن الذي تحدثه بعض أنواع البكتيريا؛ ثم لويس داغير (1787 . 1851 م) مخترع التصوير الفوتوغرافي، وغيرهم⁶⁶. أما من رجال الفكر والأدب فكان يعيش آنذاك فيكتور هيغو 1802 . 1885 م)، وبالزك (1799 . 1850 م).

3 - تأسيس المدارس العسكرية المختصة في تكوين الجيوش:

لقد انعكس ذلك التطور في المعرفة في أوروبا على العمل العسكري بشكل عام والتقنيات المتعلقة به، فاتخذ ذلك صورة علمية، وأصبحت الجيوش لها مدارس تكوين خاصة يُكوّن فيها الضباط والقادة، وتجري فيها الأبحاث العلمية التي يُعتمد عليها في تطوير القدرات العسكرية بشكل عام، من تخطيط، وإعداد للجيوش، وتدريب على القتال، وصحة عسكرية، وصناعة للسلاح، ولوسائل النقل، وغير ذلك من مستلزمات الحروب. وكانت تلك المدارس. كما كان الحال في فرنسا. على مستويين: أحدهما تمثله المدارس التحضيرية، والثاني تمثله المدارس المتخصصة. وكانت مدارس المستوى الأول تقدم تعليما عسكريا عاما، والثانية تقدم تكوينا متخصصا⁶⁷. وكان التكوين في تلك المدارس يقوم على دراسة علوم حديثة مختلفة: من رياضيات، وإحصاء، وفيزياء، وكيمياء، وهندسة، وجغرافيا، وطوبوغرافيا، ولغات، وتاريخ، ورسم، وخط، وكل ما يحتاجه الجندي والضابط في عمله العسكري⁶⁸. ولما كانت المدفعية هي جوهر القوة العسكرية فإن الاهتمام في فرنسا انصب عليها أكثر من غيرها، وكانت أولى المدارس المخصصة لذلك هي التي أنشأها الملك لوي الرابع عشر في عام 1679 م في مدينة دوي Douai، ثم تبعها تأسيس مدارس أخرى في مدن غيرها حتى أصبح عددها في عام 1795 م ثمانية مدارس، ثم ارتفع العدد إلى اثنتي عشرة مدرسة⁶⁹.

وداخل تلك المدارس كانت تعد الدراسات العلمية ذات الموضوعات العسكرية التي تستغل في تكوين القيادات العسكرية، ورفع كفاءة الجيوش، وتحسين أنظمتها، وتطوير أسلحتها، وابتكار الوسائل القتالية الجديدة، ووضع مخططات المعارك، ومعرفة العوامل المؤثرة في القتال، وغير ذلك من المجالات الهادفة إلى تطوير القوة العسكرية للدولة. وهكذا ظهر اهتمام جديد في ميدان البحث العلمي، يسير جنبا إلى جنب مع الاهتمامات البحثية الأخرى الموجودة في الطبيعة والصناعة والاقتصاد والسياسة والأدب والتاريخ، وهو ميدان "العلوم العسكرية les sciences militaires"، وصارت تصدر بشأنه بداية من عام 1824 م. كما سبق الإشارة. مجلات متخصصة، يقوم بكتابتها موضوعاتها باحثون عسكريون ومدنيون.

وإذا أتينا إلى الدولة العثمانية التي كانت تفتقد إلى البنية العلمية والتقنية، فإننا نجد أن تأسيس المدارس التي تُقَدِّم التعليم العسكري المتطور مثلما كان يحدث في أوروبا، قد بدأ في عهد متأخر بالنسبة إلى دول أوروبا، وزيادة على ذلك

⁶⁶ راجع أسماء هؤلاء العلماء ضمن قائمة العلماء مرتبين ترتيبا ألفبائيا، وتاريخيا، في موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا:

Wikipédia, liste de scientiphiques par ordre alphabétique, et chronologique

⁶⁷ Sicard (F.), Histoire des institutions militaires des Français, T. 3, Paris, J. Carréard Jeune, 1834, p 415 – 417, 433 – 449

⁶⁸ Sicard, Histoire ..., op. cit., p 417, 447 - 449

⁶⁹ Sicard, Histoire ..., op. cit., p 433 - 435

فإنها تمت عن طريق الصدفة أكثر منها عن طريق التخطيط، وبإمكانات محدودة كثيرا، وعلى يد ضباط عسكريين أوروبيين وليسوا عثمانيين. وتمت تلك البداية على يد الضابط الفرنسي الكونت دو بونيفال (1675 . 1747 م) الذي فر من بلاده خوفا من سجنه بسبب خلافات حدثت بينه وبين البيت الملكي في فرنسا، واستقر في أول الأمر في النمسا وحارب في جيشها ضد بلاده، ثم غادرها في عام 1730 نحو إستانبول حيث اعتنق الإسلام ودخل في خدمة الدولة العثمانية ونال لقب باشا، وصار يعرف باسمه الإسلامي وهو أحمد باشا. ونظرا إلى تكوينه العسكري فإن السلطان العثماني محمود الأول (1730 . 1754 م) فتح له باب العمل في الجيش العثماني واستجاب لرغبته في إدخال إصلاحات في وحداته العسكرية لرفع قدراتها القتالية. وكان أهم مشروع نفذه ذلك الضابط الفرنسي الأصل تأسيس مدرسة عسكرية تُقدّم تعليمًا عسكريًا متطورًا على النمط الأوروبي، وكان تأسيسها في عام 1735 م بمدينة أوسكودار الواقعة على الضفة الآسيوية لمضيق البوسفور قبالة إستانبول، وتخصصت تلك المدرسة في تكوين وحدة عسكرية مختصة في الرماية (خمبرجية)، وضمت ثلاث وحدات عسكرية، تتشكل كل منها من 25 ضابطًا، و75 جنديًا. وكان طلبة تلك المدرسة يتلقون تعليمًا نظريًا وتطبيقيًا يقوم على دراسة مختلف العلوم التي يقوم عليها القتال واستخدام السلاح، من رياضيات، وهندسة، وفيزياء، ورسم جغرافي. وكان يساعد أحمد باشا بونيفال ضباط أوروبيون استقدموا من فرنسا وبروسيا بشكل خاص. ولكن تلك المدرسة العسكرية كانت في الواقع تعمل في ظروف سياسية واجتماعية وعسكرية وثقافية غير مواتية، ولذلك لم يكتب لها الاستمرار، وبدأت تفقد أهميتها بوفاة مؤسسها أحمد باشا بونيفال عام 1747 م، ثم ما لبثت أن أغلقت أبوابها بعد ذلك وسرح ضباطها وجنودها أو حُولوا إلى مهام عسكرية أخرى⁷⁰.

ولما تكررت المحاولة الثانية في إقامة المدارس العسكرية في العاصمة العثمانية فإنها تمت في ظروف تكاد تكون مشابهة للظروف التي تمت فيها المحاولة الأولى، إذا لم تأت تلك المحاولة على يد عسكريين عثمانيين، وإنما على يد عسكريين أوروبيين، كان يتقدمهم الضابط المجري ذي الجنسية الفرنسية البارون دو توت (1733 . 1793 م) الذي استدعاه السلطان مصطفى الثالث للاستعانة به في تطوير الجيش العثماني. ومن المشاريع التي أقامها ذلك الضابط الأوروبي خلال إقامته في العاصمة العثمانية بين سنتي 1770 . 1776 م، تأسيس مدرستين عسكريتين لتكوين الضباط والجنود المختصين في العمل العسكري على النمط الأوروبي، وكانت إحدهما مخصصة لفرقة المدفعية، والثانية للهندسة العسكرية. وبعد ذلك زاد الاهتمام بالمدارس العسكرية في الدولة العثمانية، ولكن ذلك الاهتمام لم يوسع خارج العاصمة إستانبول نحو الإيالات ومنها الجزائر التي لم تعرف مثل تلك المدارس حتى وقع احتلالها على يد الفرنسيين بعد معركة أوسطه والي عام 1830 م. وزيادة على عدم انتشار المدارس العسكرية خارج العاصمة إستانبول، فإن تلك المدارس التي أنشئت هناك ظلت لمدة عقود من الزمن تفتقد إلى الفعالية التي كانت تتمتع بها نظيراتها في أوروبا، فكان التدريس فيها حتى عام 1836 م لا يجري بصورة منتظمة، ويتم بطريقة تقليدية تعتمد على حفظ المتون كما في المدارس القديمة، وهي دروس كان يقدمها في معظم الأحيان مدرسون عثمانيون تنقصهم المعرفة في مجال العلوم العسكرية⁷¹. وكان ذلك الضعف في التكوين هو الذي جعل السلطان محمود الثاني يرسل طلابًا عثمانيين من المدرسة الحربية التي أنشأها عام 1250 هـ (1834 . 1835 م)، إلى عواصم أوروبا لتعلم العلوم العسكرية، وكان من تلك العواصم مدينة فيينا عاصمة

⁷⁰ مجموعة من الأساتذة بإشراف إكمال الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ج 2، تعريب صالح سعداوي، إستانبول، منظمة المؤتمر الإسلامي، 1999 م، ص 504 . 505.

⁷¹ مجموعة من الأساتذة، الدولة العثمانية ...، مصدر سابق، ص 520.

النمسا⁷²، التي حاصرها العثمانيون في عام 1683 م وأرادوا فتحها كما فتحوا إستانبول من قبل، ولكنهم انهزموا أمام أسوارها هزيمة لم يعرفوا مثلها. بل أن ذلك الضعف هو الذي دفع من غير شك الباي التونسي أحمد باشا كذلك إلى الاستعانة بضابط عسكري إيطالي بدلا من ضابط عثماني، في التدريس بالمدرسة العسكرية التي أنشأها عام 1256 هـ (1840 م) في قصر باردو بتونس، وكانت لغة التعليم فيها اللغة الفرنسية، وليست التركية أو العربية. وقد قدم المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف المعاصر آنذاك، تفسيراً موضوعياً لذلك الاستخدام للغة الفرنسية، إذ أرجعه إلى المستوى المتدني الذي كانت عليه المعارف في الدولة العثمانية، فيقول: "وفي غرة محرم من سنة ست وخمسين رتب هذا الباي مكتبا حربيا [(أي مدرسة حربية)] بباردو [...] لتعليم ما يلزم العسكر النظامي من العلوم كالحساب والهندسة والمساحة وغيرها، ولتعليم اللغة الفرنسية لأن أكثر كتبها [(أي كتب تلك العلوم)] مدونة بهذه اللغة"⁷³.

وقد انعكس التقدم العلمي الذي حدث في المجتمع الأوروبي، والتعليم العسكري المتطور الذي كان يتم في المدارس الحربية بالقارة، على العسكرية الأوروبية بصورة عامة، وأدى إلى تفوقها بصورة بارزة على العسكرية العثمانية، وظهر ذلك التفوق واضحا إبان الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر عام 1830 م. وكان ذلك التفوق هو الذي أدى إلى هزيمة الجزائريين في معركة أوسطه والي يوم 19 جوان من تلك السنة، وانفتاح الطريق أمام الفرنسيين بعد ذلك نحو مدينة الجزائر، فتم احتلالهم لها يوم 5 جويلية من السنة المذكورة. وقد انهزم الجزائريون في تلك المعركة مع أن التقارير الفرنسية تذكر بوضوح أنهم قاتلوا بدرجة عالية من الشجاعة، وأبدوا مهارات قتالية عالية، وبذلوا كل ما في وسعهم لصعد الحملة ومنعها من احتلال مدينتهم⁷⁴، ولكن كانت تنقصهم المعرفة القتالية، والتكنولوجيا العسكرية، وهما العاملان اللذان كان عدوهم الفرنسي متفوقا عليهما فيهما. ولبيان ذلك التفوق يكفي النظر إلى طرق إعداد الحملة، وإلى مكوناتها، وأسلحتها، وطرق القتال التي استخدمها قادتها في المعركة. وهي كلها مظاهر لم يكن يوجد ما يقابلها لدى الطرف الجزائري كما نبين ذلك في العناصر الموالية.

4 - توظيف التاريخ العسكري في الحروب:

فبخصوص طرق إعداد الحملة فإنه يكفي الإشارة إلى قيام قادة الحملة بتوظيف التاريخ العسكري الذي كان، ولا يزال إلى اليوم، يُشكّل أحد مواد التعليم الأساسية في المدارس العسكرية، وتم ذلك التوظيف بدراسة تاريخ الجزائر العسكري لمعرفة تجاربها التاريخية مع الحملات التي شنت عليها من قبل الدول الأوروبية طوال العهد العثماني بهدف احتلالها، لمعرفة أسباب فشل تلك الحملات، وتجنب الأخطاء التي وقع فيها قادتها، والاطلاع على الصعوبات والتحديات التي واجهتهم في ميدان المعركة أثناء المواجهة مع الجزائريين، وذلك كله من أجل رفع القدرة القتالية للحملة الفرنسية وضمان نجاحها في تحقيق هدفها باحتلال مدينة الجزائر. ومن أهم الحملات التي درسها ضباط الحملة الفرنسية الحملتان الإسبانيتان الشهيرتان، الأولى لعام 1541 م، وهي التي قادها الملك شارلكان (شارل الخامس)، والثانية لعام 1773 م، وهي

⁷² مجموعة من الأساتذة، الدولة العثمانية ...، مصدر سابق، ص 520.

⁷³ ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الباب السادس، تحقيق أحمد عبد السلام، تونس، منشورات الجامعة التونسية، 1971، ص 70.

⁷⁴ راجع تلك الشهادات في:

Ault-Dumensil, De l'expédition ..., op. cit., p 56; Nettement, histoire de la conquête ..., op. cit., p 377-378, 385-386; Rozet, Relation de la guerre..., op. cit., p 146, 163 - 164; Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., pp 172, 174.

التي قادها الأميرال أوربي، وكلاهما صدهما الجزائريون ومنعهما من تحقيق هدفهما باحتلال الجزائر. ولمعرفة تفاصيل الوقائع التي أحاطت بالحملتين المذكورتين فإن الكونت دو بورمون ما إن أبلغ بتعيينه قائدا للحملة حتى طلب من الملك الفرنسي أن يرسل الأمر إلى سفيره في مدريد (عاصمة إسبانيا) للبحث في الأرشيف الإسباني بالأسكوريال، عن الوثائق المتعلقة بالحملتين المذكورتين وجمع المعلومات المتعلقة بهما، لأن فشلهما في تحقيق هدفهما لم يكن، حسب نظره، بسبب الصعوبات الطبيعية كما روج لذلك الإسبان، وإنما بسبب أخطاء بشرية وقع فيها الضباط الذين تولوا قيادة الحملتين.⁷⁵ ولكن توظيف التاريخ العسكري في الحملة الفرنسية لم يقتصر في الواقع على دراسة تجارب الحملات الأوروبية على الجزائر فقط، وإنما تجاوز ذلك إلى استخدامه في الإعلام العسكري الذي يهدف إلى تعريف الضباط والجنود وكل رجال الحملة الفرنسية، بالجزائر من مختلف الجوانب: الجغرافية والتاريخية والسياسية والدينية والعسكرية والثقافية والاقتصادية والسكانية. وتم ذلك من خلال إعداد الكتاب الذي سمي (وصف تاريخي وإحصائي وطوبوغرافي للجزائر لفائدة الحملة الإفريقية)⁷⁶، وقد سبق الإشارة إليه. وجز ذلك الميل إلى دراسة التاريخ العسكري في المدارس العسكرية الفرنسية، ضباط الجيش الفرنسي بعد الاحتلال إلى الاهتمام بتاريخ الجزائر اهتماما كبيرا، وبلغ ما حرروه من مؤلفات مختلفة الأحجام، وأبحاث نشرها في مجالات مختصة أسسوها لذلك الغرض، مثل المجلة الإفريقية، مستوى جعل تلك الكتابة تشكل ظاهرة بارزة في الكتابة التاريخية في الجزائر أثناء الاحتلال، حتى أن الدكتور أبو القاسم سعد الله أطلق على العهد الذي شملته تلك الكتابة وهو من 1830 إلى 1889 م، عهد المؤرخين العسكريين.⁷⁷

5 - تعدد الفرق العسكرية المختصة في الجيوش:

وأما مكونات الحملة الفرنسية فمن الناحية البشرية فإنها كانت تتشكل من فرق عسكرية وشبه عسكرية متعددة التخصص بقدر ما يمكنها أن تحقق هدفها، وكثير من تلك الفرق لم يكن يوجد ما يماثلها في الجيش الجزائري العثماني، لأن استحداثها في الجيش الفرنسي كان نتيجة للتقدم الذي حدث في العلوم العسكرية في أوروبا بشكل عام. ونحن هنا لا نستطيع أن نتحدث عن تلك الفرق جميعا، إذ هو موضوع من اختصاص الباحثين العسكريين، وإنما نتحدث عن فرقة واحدة فقط كان عملها يمثل أحد مظاهر التقدم عند المسلمين في القديم، ولكن ذلك التقدم انتقل من بعدهم إلى الأوروبيين، وهي الفرقة الطبية التي كانت تتشكل من 266 شخص، بين أطباء وجراحين وصيادلة⁷⁸، ذلك دون حساب اليد المساعدة. وكانت تلك الهيئة تعكس من غير شك في تكوينها العلمي وحرفيتها الميدانية، المستوى العالي للمعرفة الطبية التي وصل إليها المجتمع الأوروبي بشكل عام آنذاك، ومنه المجتمع الفرنسي، بفضل تطور دراسة ذلك النوع من العلوم في مؤسسات التعليم المختصة. ويكفي أن نذكر هنا السيد "كاسبارو Gaspard Roux" (1780 . 1839 م) الذي

⁷⁵ Merle (J.T.), Anecdotes historiques et politiques pour servir à l'histoire de la conquête d'Alger en 1830, Paris, G.A./, Dentu, 1831, pp 12-13

⁷⁶ Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit. .

والحملة الإفريقية هنا يقصد بها الحملة التي أرسلت لاحتلال الجزائر في عام 1830 م.

⁷⁷ سعد الله (أبو القاسم)، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401 هـ / 1981 م، ص 19 وما بعدها.

⁷⁸ راجع قائمتهم في:

Perrot (A. M), La Conquête d'Alger ou relation de la Compagne d'Afrique, Paris, H. Langlois Fils, 1830, pp 65 - 67

عُين قائدا عاما لهذه الفرقة، إذ كان أحد أنجب الطلبة في مدرسة الطب في باريس، وفيها حصل على درجة الدكتوراه في عام 1802 م، برسالة بحثية حول مرض الحصبة بلغ حجمها 211 صفحة، ونشرها في عام 1807 م. وبعد ذلك بدأ السيد "كاسبارو" عمله في المستشفيات العسكرية الفرنسية، إلى جانب متابعته لدراسته التخصصية، حتى صار أحد كبار أساتذة الطب في مستشفيات الجيش الفرنسي، وشارك في حملات عسكرية كثيرة في عهد نابليون، وأخيرا في حملة الجزائر عام 1830 م. وإلى جانب العمل الطبي فإن السيد "كاسبارو" اشتغل بالبحث والتأليف أيضا، ومن أهم الدراسات التي أنجزها زيادة عن رسالته للدكتوراه المذكورة، واحدة حول الحُمَيَات الوهنية، استخلص معلوماتها من الملاحظات الميدانية التي أجراها في المستشفيات العسكرية، ونشرها في عام 1813 م، وبلغ حجمها 498 صفحة؛ ثم دراسة ثانية حول تاريخ الطب العسكري للجيش الفرنسي أثناء حملة اليونان عام 1928، ونشرها في عام 1829 م وحجمها 175 صفحة⁷⁹.

أما الجيش العثماني الجزائري الذي كان هو الآخر يعكس مستوى "التقدم" الذي كان عليه المجتمع الذي ينتمي إليه، فإن الطب العسكري لديه كان شبه معدوم إن لم نقل معدوما بالفعل. فتذكر الكتابات الفرنسية التي أرّخت للحملة أن الجيش الجزائري لم يكن يتوفر على أي طبيب بالمعايير العلمية إلا واحد من أصل ألماني هو السيد "سيمون بفايفر" الذي كان أسيرا في الجزائر آنذاك منذ عام 1825 م⁸⁰. ولأجل ذلك فإن الجرحى الذين كانوا يسقطون في المعارك، ومنهم جرحى المواجهات مع الفرنسيين في معركة "أوسطه والي" وفي المناوشات التي تلتها، كانوا يُعالَجُون بطرق تقليدية لا تمت بأية صلة لعلم الطب، وكان يقوم بذلك العلاج، كما سُجِّلَ ذلك في مشاهدات ضُبَّاط الحملة، الحلاقون وبعض الأشخاص المغامرون الذين يَزْجُون بأنفسهم في ذلك العمل دون دراية بأصول علم الطب. وكان كثير من هؤلاء الجرحى يصاب بالتهاب الغرغرينة الذي يؤدي إلى الوفاة⁸¹. وقد وصفت لنا المصادر المحلية أيضا بعض العمليات الجراحية التي كانت تُجرى لجرحى المعارك على يد مثل هؤلاء الأشخاص، وكانوا من أهل الحرف، ومنهم الحدادون، ونقصد بذلك ما ذكره ابن زَرْقَة أثناء تأريخه لأحداث فتح وهران عام 1205 هـ (1791 م)، حيث أصيب أحد الطلبة المشاركين في المعركة، وهو سي بوتمة، بِبُنْدُقَة (أي برصاصة) في رأسه. فيقول ابن زَرْقَة واصفا الطريقة التي عولج بها ذلك المصاب: "فأثاه بعض الحدادين ممن لم تصحبه عناية المالك القاهر، فلما رأى تلك البُنْدُقَة ثابتة في خلال عظم رأسه أشار عليهم بنزعها ليسترخ [المصاب] من ضرر ذلك وبأسه [...] ثم ذهب وأتى ببريمة، فجعلها في فم الكلبتين وأنشأ يَرمِ تلك الرصاصة حتى ثبتت فيها، وصار يجذب بقوة اليمين [(أي بقوة يده اليمنى)] وآخر قبّالته يجذب رأس المصاب إليه باليدين حتى انكسرت البريمة، فذهب وصنعها، وجاء يسعى إليه كأنما غريمه، ثم برأها في الرصاصة حتى إذا ثبتت كل الثبوت جذبها بقوة، فنزعها مع ما اتصل بها من العظم وتركه يموت. تُقسم بأنشد اليمين أنه قطع منه عرق الوتين، فلم يتكلم من حينه بعد أن كان يُقبل ويُدير حتى استشهد رحمه الله تعالى [...] وقد كُنْتُ سألْتُ عنه رحمه الله عشية الخميس [قبل العملية الجراحية

⁷⁹ حول حياة هذا الطبيب الضابط: راجع:

Auger (M. j), Notice sur M. Gaspard Roux, dans : Bulletin de la Société d'Emulation du département d'Allier, Moulin, C. Desrosiers, T. 11/1870, pp 211 – 227.

⁸⁰ Nettement (A. F), Histoire de la conquête d'Alger, Paris, Jacques Le Cooffre, 1956, pp 317 - 363

⁸¹ حول الممارسات الطبية في الجزائر في ذلك العهد راجع:

Rozet (M), Voyage dans la Régence d'Alger, T. 2, Paris, Arthur Bertrand, 1833, pp 312 – 315. وكذلك: Shaw (Tomas), Voyage dans la Régence d'Alger, tr. De l'anglais par J. Mac Carthy, 2) éd., Tunis, Bouslama, 1980, pp 80-87

المذكورة] فقبل لي إنه يخرج لقضاء الحاجة كالعادة، وبالغد نُعيت موته وقد التحق بذوي السعادة". وقد تأثر ابن زرفة لتلك الطريقة الهمجية التي عولج بها ذلك الجندي تأثراً شديداً، وعبر عن أسفه لما وصل إليه علم الطب عند المسلمين في ذلك العصر، بعدما كانوا فيه أسيادا يعلمون العالم، فقال: "فانظر أيّدك الله ما أجسر هذا الظلوم وما أشد اعتدائه على حدود الحي القيوم، إذ الطب علم من العلوم، بل قالوا علم الأبدان مقدم على علم الأديان"⁸².

6 - استخدام السفن البخارية في الأساطيل البحرية:

إذا أتينا إلى مكونات الحملة الفرنسية من الناحية المادية، من وسائل نقل، وأسلحة، وعتاد متنوع، فإن أول ما يستقطب انتباه الباحث في الموضوع هو وجود سفن بخارية ضمن القسم الحربي من الأسطول، وعددها سبع سفن⁸³. وشاركت بعض تلك السفن البخارية بفعالية إلى جانب مدفعية الميدان، في قصف تجمعات الجزائريين الذي قدموا لمواجهة الحملة⁸⁴. ويبدو ذلك العدد من السفن البخارية الذي كانت تتشكل منه الحملة الفرنسية، صغيراً بالمقارنة مع باقي السفن الحربية التي كانت تسير بالأشربة وعددها مائة (100) سفينة، إلا أن أهميته كبيرة جداً بالنظر إلى الرمزية التي يُعبر عنها ذلك العدد والمتمثلة في مستوى التقدم الذي وصلت إليه الصناعة البحرية في أوروبا بفضل الاكتشافات العلمية التي صارت تتحقق آنذاك على أيدي العلماء في مختلف الميادين وتجد طريقها إلى التطبيق في الحياة، ومن ذلك ميدان التكنولوجيا التي يقوم جانب كبير منها على الحركة الآلية، إذ بدأ التخلي عن طاقة الهواء والعضلات في حركة الآلات بشكل عام (مثل آلات الطباعة واستخراج المياه والفلاحة، والعربات، والسفن وغيرها)، واستخدام طاقة جديدة بدلا منها هي طاقة البخار. ولبيان مستوى التقدم الذي وصلت إليه فرنسا في استخدام البخار في الحركة الآلية فإن أسطولها التجاري كان يضم في عام 1828 م إحدى وسبعين (71) سفينة بخارية مخصصة لنقل البضائع والمسافرين عبر البحار والأنهار⁸⁵، أما السفن الحربية البخارية فبلغ عددها تسع (9) سفن في عام 1829 م⁸⁶. وكما غيرت قوة البخار مجرى الملاحة البحرية فإنها غيرت مجرى الصناعة أيضاً، إذ يكفي أن نذكر هنا أن فرنسا صارت في عام 1851 م، أكثر من خمسة آلاف وخمسمائة (وبالتحديد 5607) ورشة صناعية تُستخدم كلها آلات البخار. أما في ميدان السكك الحديدية فصار لها في السنة نفسها أكثر من سبعمائة (وبالتحديد 727) قاطرة بخارية، تغطي شبكة من المواصلات بلغت مسافتها أكثر من ألفين ومائة (وبالتحديد 2171) كيلومتراً⁸⁷.

أما في العالم العثماني آنذاك، فإننا إذا تحدثنا عن الجزائر فإن حالة السفن البخارية بالنسبة إليها كانت مثلها مثل حالة آلة الطباعة، فكلهما لم تعرفهما الجزائر إلا مع الحملة الفرنسية في عام 1830 م. أما الدولة العثمانية التي بينت معركة نافرين البحرية يوم 20 أكتوبر 1827 م ضعفها بجلاء كبير في كل الميادين، فإن أول سفينة بخارية استخدمت فيها

⁸² حول هذه الحادثة والمقارنة بينها وبين طرق العلاج التي كانت مستخدمة في أوروبا في العصور الوسطى راجع: حماش (خليفة)، دور الطلبة الجزائريين في تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني عامي 1118 هـ (1706 . 1707 م)، و1205 هـ (1791 م)، في: مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع 9، سنة 1422 هـ / 2001 م، ص 204 . 222.

⁸³ Ault-Dumensil, (E. d'), De l'expédition d'Afrique en 1830, Paris, l'Editeur, 1832, p 22.

⁸⁴ Rozet, Relation de la guerre ... op. cit., pp 151

⁸⁵ Tourasse et Mellet (F. N), Essai sur les bateaux à vapeur appliqués à la navigation intérieure et maritime de l'Europe, Paris, Chez Malher, 1829, p 9

⁸⁶ Tourasse, et Mellet, Essai sur les bateaux ..., op. cit., p 14

⁸⁷ Fouquier (A), Annuaire historique universel pour 1852, Paris, Thoisnier Desplaces, 1854 , p 164

كانت في عام 1828، وقد ابتاعها السلطان محمود الثاني من أنكليترا⁸⁸. وارتفع ذلك العدد في سنة 1830 م إلى سفينتين⁸⁹. ونظرا إلى الطبيعة التكنولوجية المتطورة والغير المألوفة لتلك السفن بالنسبة إلى العثمانيين آنذاك، فإن قيادتها أُسندت كما حدث في السفينة الأولى إلى مهندسين إنكليز، ولما أختير جنديان من البحرية العثمانية لتعليمهما قيادة السفينة وإطلاعهما على طريقة عمل محركها، فإن المهندسين الأنكليز - كما يروي شاهد عيان - وجدوا صعوبة كبيرة في ذلك بسبب جهل الجنديين العثمانيين المذكورين لقواعد الفيزياء، فضلا عن عدم إبداء رغبتهما في التعلم واعتقادهما أن السفينة تحركها طاقة شيطانية يصعب عليهما فهمها. ولذلك فطوال الثلاثة أشهر التي بقيها الجنديان العثمانيان المذكوران على متن السفينة بغرض التعلم، فإنهما لم ينزلا برفقة المهندسين الإنكليز إلى غرفة المحرك سوى مرتين⁹⁰. ويُبين ذلك كله مستوى التخلف الذي كانت عليه الدولة العثمانية في مجال العلوم والتقنية، وجمود العقل الجمعي العثماني وعجزه عن التفكير.

مع العلم أن تطور البحرية العسكرية في أوروبا لم يقتصر في هذا العصر على استخدام محركات البخار فقط وإنما مس جوانب أخرى شملت الشكل والهيكل والتوجيه والمناورة وغير ذلك. وكان بعض تلك الجوانب قد تم إنجازها واستخدم في الأسطول الذي تشكلت منه الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830 م، وبعضها الآخر بدأ التفكير فيه وتقديم الدراسات حوله ليتم إنجازها في العقود الموالية، ومن ذلك استخدام معدن الحديد في بناء هيكل السفن بدلا من الخشب، وذلك لما للحديد من قدرة على مقاومة الحريق، وضربات القذائف المدفعية، وعوامل الطبيعة، علاوة على طول المدة التي يدومها، والصفة الاقتصادية التي يتوفر عليها، ووفرته في الطبيعة، وهي خصائص لا تتوفر عليها مادة الخشب. وكانت إحدى الدراسات التي أنجزت حول ذلك هي التي نُشرت في مجلة العلوم العسكرية الفرنسية في عددها الأول لعام 1825 م، أي قبل احتلال الجزائر بخمس سنوات⁹¹.

7 - استخدام الأسلحة المتطورة (المدافع الميدانية المتحركة):

أما في مجال السلاح والعتاد فإنّ الحملة الفرنسية ميّزتها مكونات كثيرة كان أهمها التنوع. وذلك أمر يتمشى وتطور علم الحرب في أوروبا. ذلك أن الحرب بطبيعتها هي مجموعة مختلفة من العمليات القتالية والإمدادية والاستخباراتية، ولكنها تتميز بأنها تشترك في هدف واحد هو تدمير العدو وإخضاعه لإرادة المنتصر. وبسبب حالة الاختلاف بينها فإن تلك العمليات لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنفذ بسلاح واحد أو آلة إمداد أو وسيلة واحدة، وإنما بأسلحة وآلات ووسائل مختلفة تتناسب وذلك الاختلاف في العمليات، ومن ثم جاء تنوع الأسلحة وآلات الإمداد ووسائلها. وهذه الفكرة هي في الواقع قديمة بقدم الحروب، ولكنها صارت أكثر تطورا في أوروبا في الفترة الحديثة بفضل التقدم الذي حدث في الفكر العسكري الذي صار علما قائما بذاته، له أدوات فهم وبحث خاصة، وأساتذة متفرغون قائمون عليه، ومدارس يُدرس فيها، وصناعة موجهة إليه. ومن ثم جاء التنوع الكبير في الأسلحة والعتاد الذي زوّد به الفرنسيون حملتهم العسكرية على

⁸⁸ Mac-Farlan, Constantinople et la Turquie en 1828, tr. De l'Anglais par MM. Nettement, Paris, Moutardier, 1829, pp 225 - 226

⁸⁹ Dictionnaire Géographique universel, T. 10, Paris, 1833, p 231

⁹⁰ Mac-Farlan, Constantinople et la Turquie ..., op. cit., pp 226 - 227

⁹¹ Montgery (M. De), Mémoire sur les navires en fer, dans : Journal des science militaire des armées de terre et de mer, Paris, Bureau du journal, T. 1/1825, pp 488 - 507

الجزائر، كما تبين ذلك القوائم التي أعدت بتلك التجهيزات وجاء ذكرها في المصادر التي أرخت للحملة⁹². ومما امتاز به ذلك السلاح والعتاد أيضا، علاوة على التنوع، هو الحداثة، حتى أن بعض الأسلحة لم تكن فقط ذات تفوق على نظيراتها الموجودة لدى الجزائريين، وإنما لم تكن معروفة لديهم أيضا. ومن ذلك المدفعية الميدانية التي اتخذت منعرجا كبيرا في التطور في أوروبا بعد حرب السبع سنوات التي اندلعت في القارة عام 1756 م بين إنكلترا وبروسيا من جهة، وفرنسا والنمسا وروسيا والسويد من جهة ثانية. ولكي يستطيع ملك بروسيا فريديريك الثاني مواجهة خصومه الأوروبيين فإنه رأى أن أمامه وسيلة واحدة فقط عليه القيام بها، وهي رفع القدرة القتالية لدى قواته العسكرية، ويكون ذلك بزيادة سرعتها في الحركة والمناورة أمام خصومه في ميادين القتال. ولكي يحقق ذلك فإن أهم عمل قام به هو بناء مدفعية جديدة غير المدفعية القديمة، فتكون خفيفة وليست ثقيلة، ومتحركة وليست ثابتة، بحيث لا تعيق حركته السريعة على رأس الجيش، وتسمح له بالتوجه لمحاربة أعدائه على مسافات بعيدة قبل وصولهم إلى أراضيهم، وملاحقتهم بعد الهزيمة. وقد نجح فريديريك الثاني في مشروعه نجاحا باهرا، وحقق أهدافه في الحرب بأريحية كبيرة. وبعد نهاية الحرب أدرك الأوروبيون سر انتصار بروسيا عليهم، وتوجهوا كلهم لتطوير سلاح مدفيعتهم على النمط البروسي (الألماني). ومن ذلك الحين عرف سلاح المدفعية في أوروبا تطورا كبيرا، وصارت المدفعية المثالية التي تسعى كل دولة إلى امتلاكها هي المدفعية الأخف وزنا والأسرع حركة والأقوى في تدمير العدو⁹³. ومن هنا اخترعت المدفعية الميدانية الحديثة التي صارت تثبت فوق العربات ذات العجلات، وتجربها الخيول، ويمكن نقلها من مكان إلى آخر عبر السهول والهضاب وحتى الجبال والوديان، ومختلف التضاريس، وتوجيه فوهاتها حسبما تتطلبه ظروف القتال في المعركة، ويعني ذلك أن حركتها في الميدان تكون مرافقة لحركة الجيش الذي يستخدمها، فإذا تقدم فإنها تتقدم معه، وإذا تراجع فإنها تتراجع معه أيضا، وكذلك إذا قام بمناورة معينة، فإنه يحركها وينقلها من مكان إلى آخر ويُغيّر اتجاه فوهاتها ويضبط زاوية رميها حسبما تقتضيه المناورة والهدف المحدد قصفه بها. وكان هذا حال المدفعية التي صار يستخدمها الفرنسيون وزودوا بها حملتهم على الجزائر، وكان عددها اثنين وثمانين (82) مدفعا، وكانت ذات أعيرة مختلفة، وترمي قذائف متفجرة ذات أحجام متعددة، وزيادة على ذلك فهي ترمي على مسافات بعيدة تصل إلى 1500 م⁹⁴. وعُيّن لتلك المدافع فرقة من الجنود تتشكل من نحو 2500 رجل مختصين في تركيبها ونقلها وحمل معداتها واستخدامها. أما القذائف التي ترمي بها تلك المدافع فبلغ عددها (64400) قذيفة متنوعة ومختلفة الأحجام. وعين لجر العربات التي تحمل تلك المدافع والقذائف وسائر المعدات (1302) حيوان بين أحصنة وبغال⁹⁵.

أما المدافع التي كان يستخدمها الجزائريون، فكانت على العكس من المدافع الفرنسية تماما، فكانت على شكل المدافع القديمة التي كانت مستخدمة في أوروبا قبل حرب السبع سنوات (1756 . 1763 م). فكانت مخصصة للحصون أكثر منها لميادين القتال. فكانت ثقيلة، وثابتة، أو شبه ثابتة، إذ توضع في الغالب على أسرة غير متحركة تبنى بالحجارة أو تصنع من الخشب، وزيادة على ذلك فإن كثيرا منها كان قديما جدا، وصار بمرور السنين مع غياب العناية، غير صالح

⁹² هناك مصادر كثيرة سجلت بها مكونات الحملة الفرنسية، ومنها:

Pérrot (A. M.), La conquête d'Alger, Paris, H. Langlois, 1830, pp 42 – 67 ; Desprez, Journal ..., op. cit., 307 - 320

⁹³ راجع بخصوص ذلك التجربة الفرنسية في:

Allix (J.A.F), Système d'artillerie de campagne du lieutenant – Général Allix, paris, Anselin et pachard, 1827, pp 8 et suiv.

⁹⁴ Carnot (M), De la défense des places fortes, Paris, M. Coursier, 1912, p 533 راجع أنواع تلك المدافع في:

⁹⁵ Rozet (M), Relation de la guerre d'Afrique pendant les années 1830 – 1831, T. 1, Paris, 1832, pp 17, 25

للاستعمال. ومما كان يعيق حركة تلك المدافع أكثر هي التضاريس الصعبة، من هضاب وأودية وجبال، فضلا عن عدم وجود الطرق المستوية التي تسهل عملية النقل. ولذلك فإن تلك المدافع كانت تلازم الجيش مادام موجودا بجوارها، أما إذا تقدّم أو تراجع أو قام بمناورة مُعينة فإنه يتركها بعيدة عنه، فضلا عن عدم التحكم في توجيه فوهاتها تحكما دقيقا. وكل ذلك كان يحد فعالية من استخدامها، وينقص من قوتها القتالية، ويجعلها غنيمة سهلة بيد العدو عند تراجع الجيش عنها. وقد سجلت المصادر الفرنسية المعاصرة للحملة حالة تلك المدفعية، ومنها الكتاب الإعلامي الذي وزع على الجنود الفرنسيين، فذكر بأن "حاضرة المدفعية الميدانية الجزائرية كان بها نحو أربعين مدفعا، ولكن نصفها غير صالح للاستخدام، ووُضع نحو خمسة عشر منها على أسرة إسبانية قديمة، ضخمة وثقيلة جدا، وعلاوة على ذلك فهي مستغلة بطريقة سيئة ومستعملة بصورة غير جيدة. والجزائريون يكادون لا يستخدمون المدافع الميدانية في معاركهم، وأكبر عائق لهم في ذلك التضاريس الصعبة وغياب الطرق المستوية"⁹⁶. ثم ما ذكره جيشيرو دو سان دوني عن المدافع التي وجدها الفرنسيون مقامة في قلعة شبه جزيرة سيدي فرج لما نزلوا بها يوم 14 جوان، فقال بأن الوثائق الرسمية الفرنسية أشارت إلى العثور على أربعة مدافع صغيرة مصنوعة من الحديد وُجدت هناك، و"كانت تلك المدافع ذات عيار 3 و 6 أرطال. وتعود بتاريخها إلى عهد خير الدين برباروسا (ق 16 م)، وظلت منذ ذلك العهد عرضة للهواء المشبع بالبخار المالح الآتي من البحر والمضربها. فكانت مغطاة من الداخل والخارج بطبقات سميكة من الحديد، تتساقط منها أو تتحول إلى تراب عند أخف ضغط عليها. وكانت أسرتها قد تَلَفَت منذ مدة طويلة، ولم يَجَرَّ تجديدُها"⁹⁷. وذلك الوضع الضعيف الذي كانت عليه المدفعية الجزائرية الموجهة لحرب الميدان خارج مدينة الجزائر، قد عبر عنه أحمد الشريف الزهار نفسه لما تحدث عن برج مولاي حسن الذي يعتبر واحدا من أكبر الحصون المهيأة للدفاع عن مدينة الجزائر، فقال: "اتفقوا على تعمير برج مولاي الحسن، وكانوا قد بعثوا بي لأجَرِدَ لهم ما فيه من المدافع وآلة الحرب، فذهبتُ، ووجدت به عشرة مدافع صغيرة، ونحو القنطارين من البارود، وما يقرب من المائتي كورة، فأتيتهم بالجريدة واطَّلَعُوا عَلَيْهَا"⁹⁸.

وكما وصفت المصادر الفرنسية حالة المدفعية الميدانية الجزائرية، فإنها وصفت تفوق نظيرتها الفرنسية عليها أيضا، ومن ذلك ما ذكره الضابط فرنسو ديبري F. Desprez، فقال: "إن مدافعنا المتحركة والحديثة الطراز قد أعطتنا تفوقا كبيرا على العدو، وفاجأته في كل العمليات العسكرية التي واكبت الحملة، إذ لم يكن لديه (أي للعدو) ما يواجهنا به سوى المدفعية الثابتة *artillerie de position*"⁹⁹. ويقول في موضع آخر: "إن المدفعية [الفرنسية] على الرغم من صعوبة المنحدرات والوديان التي كانت تعترض طريقها، فإنها كانت تسير مرافقة للمشاة، وتتقدّمهم أمامهم في بعض الحالات. والقذائف التي رُميت بدقة كبيرة على النقاط التي كان يتجمع فيها العدو بأعداد كبيرة، قد ألحقت به أضرارا كبيرة وسببت له الرعب. وإن المدفعية الجزائرية كانت ترمي من غير توجيه سليم ولم تكن لها أية فعالية. ومع أنه كان يشرف عليها رجال مهرة، إلا أن نيرانها لم تكن تحدث أي تأثير على وحدات جيشنا"¹⁰⁰.

⁹⁶ Anonyme, *Aperçu historique ...*, op. cit., p 232

⁹⁷ Saint Denys, *Considérations statistiques, historiques, militaires et politiques sur la régence d'Alger*, Paris, Delaunay, 1931, p 170

⁹⁸ الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 173.

⁹⁹ Desprez, *Journal ...*, op. cit., p 78

¹⁰⁰ Desprez, *Journal ...*, op. cit., p 105

8 - استخدام البنادق ذات الحراب:

زيادة على المدفعية فإن هناك أسلحة ومعدات أخرى جهز بها الفرنسيون حملتهم، ولم يكن الجزائريون يملكونها، وهي تشهد على تطور الصناعات الحربية والمعارف القتالية لدى الفرنسيين على وجه الخصوص والأوروبيين على وجه العموم. ومن ذلك البندقية المزودة بالحربة التي يعبر عنها الفرنسيون باسم *baïonnette*، وهي لا تزال مستخدمة في أسلحة العصر الحديث. وتنسبها الكتابات الفرنسية في العادة إلى المدينة التي يقال بأنها اخترعت فيها وهي مدينة (بايون Bayonne)¹⁰¹، ولكن هناك من الفرنسيين من يفند ذلك الادعاء ويقول بأن اسمها مقتبس من الكلمة الإسبانية *bayneta* (بمعنى: غمد، أو سكين ذو غمد)¹⁰². وصارت الحربة تُثبت في نهاية البندقية لتستخدم في القتال في المعارك للدفاع والهجوم معا. وبدأ ذلك الاستخدام بشكل رسمي وعام في الجيش الفرنسي بداية من عام 1703 م. ولكن استخدام الحربة لم يبق مقتصرًا على الجيش الفرنسي فقط وإنما عم مختلف الجيوش في دول أوروبا، حيث صارت تعرف في لغات تلك الدول بأسماء متشابهة، وصارت لها أشكال ومقاييس مختلفة، حتى صار لدينا حربة فرنسية، وأخرى ألمانية، وثالثة إنكليزية، ورابعة سويدية، أو هولندية، أو روسية، أو غير ذلك¹⁰³. ولكي تؤدي الحربة دورها الفعال في المعارك فإنها صارت لها تدريبات خاصة يتعلم الجنود من خلالها كيفية استخدامها، وتُسمى التدريب على استخدام الحربة (*escrime à la baïonnette*)¹⁰⁴. وقد غنم العثمانيون بعض البنادق المجهزة بالحربة في حربهم ضد روسيا في عام 1185 هـ (1771 م)¹⁰⁵، ولكن مع ذلك لم يدخلوها في سلاحهم. وعلى الرغم من أن الضابط المجري ذي الجنسية الفرنسية البارون دو توت (1733 . 1793 م) الذي استدعاه السلطان مصطفى الثالث للاستعانة به في تطوير الجيش العثماني بين سنتي 1770 . 1776 م كما سبق أن بينا أعلاه، قد أدخل البندقية ذات الحربة في سلاح بعض الفرق التي أشرف على تدريبها في إستانبول، إلا أن العثمانيين لم يقتنعوا بها، ومن ثم لم يقوموا بتعميمها على فرقهم العسكرية الأخرى، وزيادة على ذلك فإنهم تخلّوا عنها بعد توقف البارون دو توت عن أداء مهمته العسكرية وعودته إلى بلاده في عام 1776 م، مع أن ذلك العمل الذي قام به البارون دو توت تم بموجب فتوى صدرت من شيخ الإسلام¹⁰⁶. وكذلك كان شأن الجيش العثماني في الإيالات كما سجل ذلك الرحالة الفرنسي ديفونتان Desfontaines ضمن مشاهداته عن تونس في عام 1783 م، فذكر أن الجندي هناك كان سلاحه يتشكل من مسدس وسيف وخنجر وبندقية من غير حربة¹⁰⁷. ولم يكن الجيش العثماني في

¹⁰¹ Chérueil (A), dictionnaire historique des institutions, mœurs et coutumes de la France, 1ere partie, Paris, Hachette, 1855, p 59

¹⁰² Marin (Henri), Histoire de France depuis les temps les plus reculés jusqu'en 1789, vol. 13, Paris, Furne, 1865, p 15

¹⁰³ Tackels (C. J.), Etude sur les armes à feu portatives, Bruxelles, Ch. Muquardt, 1866, pp 15-16: ورجع أيضا: Encyclopédie du dix-neuvième siècle, T. 5, Paris, Bureau de l'Encyclopédie, 1843, p 36-37

¹⁰⁴ راجع:

Le Spectateur militaire, Paris, Mareschal, T. 4, 1828, pp 61- 67; Chapitre (F), Gymnastique militaire, escrime à la baïonnette, 6^e éd., Bruxelles, E. Renier, 1856

¹⁰⁵ Coussin de Perceval (P. A.), Précis historique de la guerre des turcs contre les russes, tiré des annales de l'historien turc Vassif Efendi, Paris, Le Normant, 1822, p 160, et

¹⁰⁶ Coussin, Précis historique ..., op. cit., p 160, n 1

¹⁰⁷ Peyssonnel et Desfontaines, Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, publiés par M. Dureau de la Malle, T. 2, Paris, Gide, 1838, p 31

الجزائري شكل استثناء عن ذلك النظام في تسليح الجندي، فلم يستخدم هو أيضا البندقية المجهزة بالحربة، وظل سلاحه حتى سنة 1830 م مشكلا من آلتين منفصلتين: نارية يمثلها المسدس والبندقية الطويلة، وآلة معدنية يمثلها السيف العثماني الذي يسمى ياتغان¹⁰⁸. ويعني ذلك أن الجندي الجزائري لما يكون في المعركة، فعوض أن يستخدم سلاحا واحدا مزدوج الوظيفة (ناريا وأبيض في الوقت نفسه)، فإنه كان يستخدم سلاحين في آن واحد، مما يجعل حركته ثقيلة ومناورته القتالية محدودة. ونظرا إلى الأهمية التي صارت تؤدها البندقية ذات الحربة في رفع القدرة القتالية لدى الجندي الفرنسي بشكل خاص والأوروبي بوجه عام، والدور الذي تؤديه في حسم المعارك لصالحه، فإن بعض المصادر الفرنسية تحدثت عن الحملة الفرنسية على الجزائر قبل وقوعها، وبينت الشروط الواجب توفرها لنجاحها في تحقيق هدفها وهو احتلال الجزائر، وكان أحد تلك الشروط تزويد الجيش الذي تتشكل منه الحملة بالبنادق ذات الحراب. وذلك ما كتبه السيد رونودو Renaudot الذي اشتغل رجل أمن في القنصلية الفرنسية في الجزائر قبل الاحتلال، فقال في مؤلفه عن الجزائر الذي أصدره في عام 1830 م: "إن احتلال الجزائر يتطلب بشكل أساس السرعة والإقدام، ولا يحتاج غير تزويد جنود الحملة بالحرب التي تثبت على البنادق (البايونات)، وقائد عام له سيرة عسكرية ثرية، وقائد أسطول مقدم وذكي"¹⁰⁹. وقد تبين بالفعل ذلك الدور للبندقية المزودة بالحربة في ترجيح القوة القتالية لصالح الجندي الفرنسي على حساب الجندي الجزائري، في ميدان المعارك التي وقعت بين الجانبين بداية من نزول الجيش الفرنسي في شبه جزيرة سيدي فرج يوم 14 جوان 1830 م. وظهر ذلك في المواجهات التي وقعت وجها لوجه، سواء أثناء القتال في الميدان، أم أثناء هجوم الجزائريين على الفرنسيين في مواقعهم خلف الحواجز الترابية التي أقاموها في مناطق مختلفة، أو مشكلين خطوطا دفاعية، أو هجومية. فكان الجنود الفرنسيون يتلقون الجنود الجزائريين المهاجمين بواسطة حراهم المفتوحة بإحكام في نهاية بنادقهم الطويلة، فيقطعونهم في صدورهم أو بطونهم، ويسقطونهم قتلى على الأرض. وكما كانوا يفعلون بالجنود المشاة فإنهم كانوا يفعلون بالفرسان أيضا. وذلك ما وصفته المصادر الفرنسية التي أرخت لأحداث الحملة بكل وضوح. وحول ذلك يقول الضابط "ديبري Desprez" في وصفه لإحدى المناوشات: "لقد هجم أربعة آلاف جندي من الأتراك، بعضهم حاملين السيوف، وبعضهم الآخر حاملين البنادق، على الحواجز التي تحمي الفرقة الأولى (الفرنسية). فسقط كثير من الأتراك قتلى على تلك الحواجز بالضربات التي وجهت إليهم بالحرب المثبتة على البنادق (البايونات). وقد خاض جنود الفرقة السابعة والثلاثين معهم معركة وجها لوجه، وكان النصر حليفهم فيها"¹¹⁰. ويقول جيشيرو دو سان دوني واصفا ما حدث في معركة أوسطه والي: "إن العدو [الجزائري] الذي هوجم بالحرب المثبتة على البنادق، لم يستطع الثبات في الميدان، فاضطر إلى التراجع بسرعة وبفوضى كبيرة نحو المرتفعات الأمامية من منطقة أوسطه والي"¹¹¹. ويقول المؤرخ "ناتمون Nettement" في وصفه لإحدى العمليات القتالية التي صد فيها الفرنسيون إحدى الهجمات التي قام بها

¹⁰⁸ Rozet, relation de la guerre ..., op. cit., p 164 ; Anonyme, Aperçu historique, op. cit., p 231

¹⁰⁹ Renaudot (M), Tableau du Royaume de la ville d'Alger et de ses environs, Paris, P. Mongie Ainé, 1830, p 179 .

والنص الفرنسي هو ما يأتي:

La prise d'Alger exige surtout de la célérité et de la hardiesse ; il ne faut que des baïonnettes aux soldats, beaucoup de conduite au général en chef, de la bonne volonté et de l'intelligence au commandant de l'escadre

¹¹⁰ Desprez, Journal ..., op. cit., p 101

¹¹¹ Saint-Denys, Considérations ..., op. cit., p 170

الجزائريون: "قام الجنرال "داران D'Areines" بمواجهة الهجوم، ثم أخذ المبادرة، وزرع حماسا قويا في فرقته، وبواسطة هجوم قاموا به بواسطة الحراب المثبتة على البنادق (البايونات) صدوا الأتراك وأجبروهم على التراجع نحو الوادي"¹¹².

9 - تطور العمل الاستخباراتي:

إلى جانب تطور العتاد والسلاح فإن هناك جانبا آخر من العمل العسكري انعكس عليه التطور العلمي في أوروبا هو الجانب الاستعلاماتي (الاستخباراتي) الذي له دور كبير في معرفة قدرات العدو وخطته، ووضع المخططات القتالية المناسبة للتغلب عليه، بداية من اتخاذ قرار الحرب، إلى الإعداد المادي لها، والتخطيط للعمليات القتالية التي ترافقها، وأخيرا معرفة النتائج التي ستترتب عنها. وذلك كله بهدف التحكم في مجريات الحرب وضمان كسبها بأقل التكاليف. وكان يجند لتلك العمليات الاستخباراتية ضباط عسكريون مختصون، وأهم ما يتميزون بها الذكاء وروح المغامرة والمعارف الواسعة. وهذا ما قامت به فرنسا بالفعل بخصوص الجزائر قبل شن حملتها العسكرية عليها في عام 1830 م. وكانت أشهر عملية استخباراتية قامت بها من أجل تهيئة تلك الحملة هي التي قام بها بأمر من نابليون بونابرت، في عام 1808 م، أحد قادة فرقة الهندسة العسكرية، وهو إيف بوتان Yves Boutin. وقد أقام ذلك الجاسوس الفرنسي في مدينة الجزائر بين 24 ماي و16 جويلية من السنة المذكورة، وتجول في أنحاء المدينة، داخلها وخارجها، وأجرى ملاحظاته على الحصون المختلفة والسواحل والطرق، وتعرف على تشكيل الجيش الجزائري، وأنواع الأسلحة التي يستخدمها، وعلى كل ما يلزم لنجاح الحملة العسكرية التي كان نابليون ينوي إرسالها للاستيلاء على الجزائر. ومن مظاهر التمويه التي كان يستخدمها ذلك الضابط الفرنسي في الجزائر لكيلا تكتشف السلطات العثمانية عمله الحقيقي، أنه كان يخرج من المدينة ويجلس في السواحل ويتظاهر بأنه يصطاد السمك باستخدام الصنارة، ولكن هو في واقع الأمر كان يقيس عمق البحر لكي يحدد النقاط المناسبة لرسو السفن التي ستقوم بإنزال الجيش والمعدات العسكرية اللازمة للحملة التي ستشن على الجزائر. وأدى به ذلك العمل إلى اختيار النقطة الواقعة في شبه جزيرة سيدي فرج الواقعة غربي المدينة. ومن ثم حدد الطريق الذي ستسلكه الحملة حتى تصل إلى مدينة الجزائر¹¹³. وكانت تلك الخطة هي التي نُفذت بالفعل في حملة عام 1830 م. ولكن قادة الحملة لم يكتفوا في الواقع بما قدمه لهم بوتان في تقاريره من معلومات حول الجزائر، وإنما أضافوا إليها معلومات أخرى عديدة تتعلق بشتى المجالات، من عسكرية وسياسية وبشرية وطبوغرافية ودينية وثقافية ولغوية وغيرها، اقتبسوها من مصادر متعددة. وإن الكتاب الذي أعدوه بخصوص ذلك قبل الحملة ووزعوه على الضباط والجنود لكاف للاستدلال على الحجم الكبير من المعلومات التي جمعوها عن الجزائر قبل اتخاذ قرار شن الحملة عليها¹¹⁴.

¹¹² Nettement, Histoire ..., op. cit., p 378

¹¹³ تقريره كاملا هو:

Boutin (Yves), Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger, publié par Gabriel Esquer, Paris, H. Champion, 1927.

كما نشر التقرير ملحقا في : Nettement, Histoire ..., op. cit., pp 574- 599. واعترافا بالجميل الذي قدمه ذلك الضابط لبلاده في تحقيق مشروعهما في الجزائر، فإن الدولة الفرنسية أقامت باسمه منارة لإرشاد السفن في ضواحي مدينة الجزائر في عام 1930 م.

¹¹⁴ Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit.

ومثل هذا العمل الاستخباراتي هو الذي كان غائبا من غير شك عند العثمانيين، بحيث لم يكن لديهم المعلومات الكافية عما كان يجري في أوروبا من تطور في شتى الميادين، ومن ذلك الميدان العسكري. ومن ثم جاء فشلهم في مواجهة الأوروبيين في فيينا عام 1683 م، كما في أسطاوالي في عام 1830 م.

10 - استخدام الهندسة والحساب في المعارك:

ومن مظاهر التقدم الذي ظهر في الميدان العسكري كذلك بفعل التطور الكبير الذي حصل في العلوم في أوروبا، ظهور الحرب النظامية التي تقوم على إعداد الجيوش المدربة، واستخدام الأسلحة المتطورة، والتخطيط الجيد لشن الحملات، والقتال على أسس منهجية في المعارك، والمعرفة الدقيقة بحالة العدو والأرض التي تجري عليها المعركة. وكان ذلك كله يتم وفق دراسات ينجزها عسكريون متخصصون، وتقوم في معظمها على علم الحساب الذي يعتبر أدق ما يعبر عن المعارف الصحيحة، وهو علم تعلمه الأوروبيون عن المسلمين على إثر انتقال الأرقام العربية إليهم على يد العالم الإيطالي ليوناردو فيبوناتشي Leonardo Fibonacci (1175 . 1250 م) الذي تلقى تعليمه في ذلك في مدينة بجاية الجزائرية¹¹⁵. ومن هنا جاء اعتماد الأرقام في دراسة العلوم العسكرية كما تظهر ذلك الحملة الفرنسية على الجزائر في عام 1830 م. فنجد استخدام الأرقام في تحديد الفرق العسكرية التي تشكلت منها الحملة، وإحصاء الجنود والضباط المشاركين فيها، وتقدير حجم المعدات المختلفة التي أحضرت معها، كما نجد ذلك في طريقة القتال في ميدان المعركة حيث اتبعت طريقة المربعات¹¹⁶، وهي طريقة دقيقة في تنظيم الوحدات العسكرية في ميدان المعركة، تقوم على تشكيل مربعات ذات أشكال مختلفة، كأن تكون فارغة أو مملوءة، ويتشكل كل منها من عدد محدد من الصفوف، ومن الجنود¹¹⁷. وأخيرا في المعلومات الاستخباراتية التي جمعت بخصوص الجزائر، كما ظهر ذلك في الكتاب الذي أعد حولها ووزع على الجنود المشاركين في الحملة¹¹⁸، حيث نجد معلومات إحصائية محددة ومفصلة حول كثير من الموضوعات، مثل تعداد الجيش الجزائري¹¹⁹، والحصون وعدد المدافع المزودة بها مع تحديد حجب فوهات¹²⁰، وعدد السفن الحربية مع عدد المدافع التي تحملها¹²¹، وعدد السكان¹²²، ودرجة الحرارة¹²³، وعوائد الخزانة¹²⁴، وقيمة العملة المتداولة والأسعار¹²⁵، ونشاط الميناء من حيث عدد السفن التجارية التي يستقبلها والتي تغادره¹²⁶، والمسافات بين المدن¹²⁷.

¹¹⁵ ديوران (ول)، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ط 2، القاهرة، جامعة الدول العربية، 1966، م 4، ج 6، ص 170-171؛ العقيلي (نجيب)، المستشرقون، ط 4، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص 117.

¹¹⁶ Penhoën (Barchou de), Mémoires d'un officier d'état-major, Paris, Charpentier, 1835, p 171 ; Quatrebarres (Théodore de), Souvenirs de la campagne d'Afrique, Angers, Château, 1831, pp 35-36

¹¹⁷ حول تفاصيل ذلك راجع:

Renard (Général), Considération sur la tactique de l'infanterie en Europe, Paris, J. Dumaine, 1857, pp 131-135

¹¹⁸ نقصد به: Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit.

¹¹⁹ Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 46-48, 195-196 ,

حيث نجد إحصاءات مفصلة عن الأعداد التي كانت تتشكل منها وحدات الجيش الجزائري الذي واجه حملة أوربي الإسبانية في عام 1775 م.

¹²⁰ Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 190-195

¹²¹ Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 210-211

¹²² Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 120-121 ,

أما إذا أتينا إلى الجزائر فإن مثل ذلك التطور في فن الحرب لم يحدث فيها تماما، ولازالت المواجهات العسكرية إلى ذلك التاريخ تتم بطرق بسيطة وقديمة تخلو من كل تخطيط، وتقوم أساسا على الهجوم الجماعي على العدو دون معرفة مسبقة لا بتشكيل قواته العسكرية، ولا بالطريقة التي يحارب بها، ولا بالأسلحة التي يحملها. وتلك الطريقة في الحرب هي التي سجلتها الكتابات الفرنسية التي أرخت لأحداث الحملة الفرنسية. فيقول أحد ضباط الحملة واصفا إحدى المواجهات التي وقعت قبيل معركة أوسطه والي: "قدم الجزائريون مشاة وفرسانا وانتشروا على مساحة واسعة، وكثرت هجماتهم على جهات مختلفة [...] ولكن حدتهم وشجاعتهم لم تبلغ المستوى الذي يمكن أن تعوضهم به عما كان يعوزهم من نظام في القتال، ولذلك فخلال بضع ساعات فقط استطعنا أن نُغيّر وضعيتهم، فدخلنا مراكزهم وتابعناهم إلى ما وراء الخط الذي كانوا يحتلونه. وصار عددهم بعد ذلك يقلُّ مدة بعد مدة، وطلقناهم النَّارية تخف وتضعف باستمرار، واستمروا يطلقون النار حتى غروب الشمس"¹²⁸. ثم يقول بعد ذلك واصفا الحالة النفسية التي كان عليها الجزائريون قبيل المعركة: "كان العرب والترك تواقين إلى القتال، معتدين في ذلك بتفوقهم عدديا علينا، ولكنهم كانوا إلى جانب ذلك يجهلون التفوق الذي كان لنا عليهم بفضل معرفتنا بفن القتال والانضباط والنظام، وهي الأشياء التي كانوا هم يفتقدون إليها"¹²⁹. وليست الكتابات الفرنسية فقط هي التي سجلت لنا مظاهر التخلف في فن القتال عند الجزائريين، وإنما الكتابات التاريخية المحلية المعاصرة آنذاك أيضا، ونقصد بذلك ما كتبه أحمد الشريف الزهار في مذكراته، حيث قدم تعليقا مختصرا انتقد من خلاله مفهوم الحرب عند الجزائريين وطريقة خوضهم لها بالمقارنة مع جيوش الدول القوية مثل فرنسا. فوصف ذلك المفهوم المتخلف وتلك الطريقة التي لا تقوم على أسس منهجية بـ "قتال حمية الجاهلية"، و"قتال الرعية"، ويقصد بذلك الحروب التي تخوضها القبائل بعضها ضد بعض، أو تخوضها ضدهم السلطة العثمانية. أما علم الحساب الذي برع الفرنسيون في استخدامه في شؤون الحرب عموما كما بينا أعلاه، فإن أحمد الشريف الزهار ذكر بأن شيوخ القبائل الجزائريين الذين تصدروا الحرب ضد الفرنسيين كانوا يجهلونه، وكانوا لا يفرقون بين المائة والألف، ويعتقدون أن المائة هي الألف، مما جعله يشبههم في ذلك بالبهائم. وفي ذلك كله يقول بأن حسين باشا اتصل بشيوخ القبائل ليأتوه بالجند، فأجابوه لذلك، "فمنهم من قال له أنه يأتيه بأربعين ألف رجل، ومنهم من قال له أنه يأتي بثلاثين ألف رجل، ومنهم من قال بعشرين ألفا، وهكذا سائر الأعراش سهلا وجبلا. فلما قرأ ذلك اجتمعت لديه ملايين يظهرون له الرغبة في الجهاد، وهم قوم مثل البهائم ظهر لهم أن ذلك القتال هو كقتال بعضهم لبعض، قتال حمية الجاهلية، وقد ذكروا له الألف لأنهم لا يعرفون مقدار الألف، فظنوا أن المائة هي الألف. والباشا نفسه ظن أن هذا القتال مثل قتال الرعية، وإلا فكيف يقابل جنسا قويا كجنس الفرنسيين من غير عدة ولا عدد"¹³⁰.

حيث نجد إحصاءات مفصلة عن عدد السكان والجماعات السكانية من عرب وترك ومزابيين وقبائل (بربر) وزنوج ويهود. كما نجد إحصاءات عن عدد السكان في تسع عشرة (19) مدينة جزائرية، ومنها مدينة الجزائر، ووهران، وقسنطينة، وعنابة، وبجاية وشرشال ومستغانم وغيرها.

¹²³ Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, p 87-88

¹²⁴ Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 160-163

¹²⁵ Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, p 165

¹²⁶ Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 226-227

¹²⁷ Anonyme, Aperçu historique ..., op. cit, pp 179-188

¹²⁸ Penhoën, Mémoires ..., op. cit., p 137-140

¹²⁹ Penhoën, Mémoires ..., op. cit., pp 162-163

¹³⁰ الزهار، مذكرات، مصدر سابق، ص 168.

وفي الحقيقة فإن الوضع العام الذي كان سائدا آنذاك في المجتمع العثماني لم يكن مهيأ لإعداد الوسائل التي تواجه بها الأخطار التي تهدد أمن المجتمع (من طبيعية وبشرية)، لأن الثقافة المسيطرة على العقل الجمعي آنذاك لم تكن تعتمد في ذلك على الفعل البشري كما نص على ذلك الأمر الإلهي في القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ (الأنفال/60)، ثم الأمر النبوي الشريف: "أَعْلِقْهَا وَتَوَكَّلْ". وإنما كانت تعتمد على الفعل الغيبي التابع من الفهم الناقص للدين في بعض الأحيان، والخطأ أحيانا أخرى. ولدينا دالتان تاريخيتان توضحان مظاهر ذلك الاعتماد: إحداهما حوار دار بين أحد الشيوخ الجزائريين زار المعسكر الفرنسي في سيدي فرج قبيل معركة أوسطه والي، وبين أحد الضباط الفرنسيين من القيادة العامة للحملة. فتقول الرواية المتعلقة بتلك الحادثة - كما سجلت ذلك المصادر التي أرخت للحملة - أن الضابط الفرنسي اقترب من الشيخ الجزائري وبين له كثرة الجنود الذين كانت تشكل منهم حملة بلاده، وكثرة العتاد العسكري الذي يحمله هؤلاء الجنود معهم، من أسلحة متنوعة وذخائر حربية مختلفة، ثم سأله عما إذا كانت تلك القوة العسكرية كلها لا تستطيع أن تحقق للفرنسيين هدفهم المتمثل في هزيمة الأتراك والقضاء على حكمهم في الجزائر. ولكي يجيب الشيخ الضابط الفرنسي على سؤاله، فإنه التقط من الأرض عمودا يابسا وكسره بيديه مرات عديدة إلى أن حوله إلى قطع صغيرة ورماه على الأرض، وخاطب بعدها الضابط الفرنسي بعبارة كرر فيها اسم الله مرتين، وفهم منها أنه قال: "إن قوة الله أعظم من قوتكم، وسيحطمها الله كما حطمت أنا العمود أمامكم"¹³¹. ويتضح هنا أن الشيخ الجزائري اقتصر فعله على تحطيم العمود فقط، أما القوة العسكرية الفرنسية التي كان مطالبها بتحطيمها كما فعل بالعمود بعدما جاءت تهدده في عقرداره، فأدرك بأنه غير قادر عليها، ولذلك أسند فعل تحطيمها إلى الله. أما الدلالة الثانية فهي رسالة بعث بها من إستانبول في 15 رمضان 1253 هـ (12 ديسمبر 1837 م)، كامل باشا الذي كان أحد وزراء الباب العالي، إلى الحاج أحمد باي الذي تزعم المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين في الشرق بعد استيلائهم على مدينة الجزائر، وبعدها على مدينة قسنطينة عام 1837 م. ومن غريب تلك الرسالة أن الوزير العثماني رسم على ظهرها حرزا طلب من الحاج أحمد باي أن يحمله معه في معاركه ضد الفرنسيين ليجلب له النصر عليهم¹³². ويعني ذلك أن الميادين التي ستجري فيها المعارك بين الفرنسيين والجزائريين بعد ذلك، ستجمع بين جيشين: أحدهما يُعلّق نصره على الفعل البشري من خلال استعمال الجند المدرب والأسلحة الفتاكة وأساليب القتال المتطورة، وجيش آخر يُعلّقُه على فعل غيبي من خلال استعمال الحروز.

خاتمة:

يبدو من خلال العرض أعلاه أن الأسباب التي قُدمت في الكتابات التاريخية لتبرير هزيمة الجيش العثماني أمام الجيش الأوروبي المتحالف في فيينا (بالنمسا) عام 1683 م، وفي أوسطه والي (بالجزائر) أمام الجيش الفرنسي في عام 1830 م، كان منبعها فهم قديم غير مستوفي لمعنى الدولة، وبشكل خاص لدى مؤرخينا في البلاد الإسلامية من عرب وترك. وترجع أصول ذلك الفهم إلى العهد الذي وقعت فيه الهزيمتان ذاتهما، وهو العهد العثماني، حيث كان مفهوم الدولة يقتصر على الصورة التي تمثلها الهياكل والرموز المادية المتمثلة بشكل أساس في المجتمع والجغرافيا، والهياكل المعنوية المتمثلة في

¹³¹ Penhoën, Mémoires ..., op. cit., p 153

¹³² الأرشيف الوطني التونسي (تونس)، الصندوق رقم 223، الملف رقم 384، الوثيقة رقم 121. وتوجد صورة من تلك الرسالة في الأرشيف الولائي بمدينة قسنطينة بالجزائر، رقمها 65.

الدين والسياسة. وعلى أساس تلك العناصر الأربعة كان يتحدد الانتماء (المواطنة)، كما تتحدد العلاقات السياسية مع الدول الخارجية أيضا في السلك كما في الحرب. أما الطاقة التي تغذي تلك الهياكل والرموز وتؤمّنها، وهي العلوم والصناعات، فكانت غائبة لدى الطرف العثماني، بينما كانت حاضرة لدى الطرف الآخر (الأوروبي). ولذلك فإن المعركتين اللتين نحن بصددهما إذا كانتا في ظاهريهما قد وقعتا بين جيشين: أحدهما عثماني والآخر أوروبي، أو أحدهما إسلامي والآخر نصراني، أو أحدهما شرقي والآخر غربي، فإنهما في عمقهما قد وقعتا بين جيشين ينتميان إلى مجتمعين لهما مستويان مختلفان في العلوم والصناعات: أحدهما متخلف يعاني الفراغ في ذلك كله، وهو الطرف العثماني، والآخر متطور تزخر بلاده بالإنتاج في ذلك كله أيضا وهو الطرف الأوروبي. وعلى ذلك الأساس تحددت النتيجة في المعركتين: فكانت الهزيمة من نصيب الجيش الذي ينتمي إلى المجتمع المتخلف، أما النصر فكان من نصيب الجيش الذي ينتمي إلى المجتمع المتقدم. وكانت الأسباب التي اعتاد المؤرخون على تقديمها لتفسير الهزيمة التي لحقت الجيش العثماني من مظاهر التخلف الذي كان يعانيه المجتمع الذي ينتمي إليه، كما كانت الأسباب التي قدمناها نحن هنا لتفسير انتصار الجيش الأوروبي مظهرا من مظاهر المجتمع الذي ينتمي إليه. مع وجوب الإشارة أن ذلك الوضع المتخلف المتسم بالفراغ العلمي والصناعي الذي كان سائدا في الفضاء العثماني، كان هو نفسه سائدا في مناطق إسلامية أخرى خارجة عنه، ومن ذلك المغرب الأقصى كما توضح ذلك رسالة وُجّهت على لسان السلطان العلوي محمد بن عبد الله (1757. 1790 م) إلى عالم فاس: الشيخ عمر بن عبد الله بن عمر (ت 1188 هـ / 1774 م)، قيل له فيها بأن السلطان أراد "إحياء سنة الجهاد بهذا القطر المغربي [...] وأراد أن يغزو الكفرة [(أي الأوروبيين الذين يحتلون سواحل المغرب)] [...] وأن يُجهز جيش المسلمين إلى قتالهم [...] فاحتاج في إقامتها [(أي لإقامة سنة الجهاد)] إلى أمور عشر على المسلمين وجودها (أي توفيرها) في هذا القطر بهذا الأوان، وظهر أنها لا توجد إلا بأرض العدو ولا تُحصّل إلا من قبلهم، وذلك كالقُمن، والصواري، والكور والمدافع وغيرها"، وهي كلها تجهيزات تخص السفن. ثم تضيف الرسالة بأن السلطان له عميل أوروبي تكفل بجلب تلك الأمور العشرة له مقابل إهدائه فرسين مغربيين "ليبين لقومه أن له منزلة عند الإمام" (أي عند السلطان). وطلب من عالم فاس المذكور أن يجيب في ضوء الشرع عما إذا كان يجوز للسلطان إعطاء الفرسين المذكورين لذلك العميل مقابل جلب تلك الأمور له، أم لا يجوز له ذلك¹³³.

العلماء الذين كانوا يعيشون في أوروبا إبان حصار فيينا على يد العثمانيين ومنجزاتهم العلمية

سنة (1094 هـ/ 1683 م)

اسم العالم	أصله	حياته	اختراعاته واكتشافاته
------------	------	-------	----------------------

¹³³ الخزانة الحسنية بالرباط، مخطوط رقم 11420 (مجموع)، ورقة 219-220.

اكتشاف الحيوان المنوي les spermatozoides (1677).	هولندي	J.L.Ham
صاحب تجربة فصل أنصاف الكرات الفارغة من الهواء l'expérience des hémisphères في مدينة (Magdeburg)، حيث وضع ظاهرة الضغط الجوي (1654).	ألماني	Otto von Guericke
مخترع (le réticule) (1662).	إيطالي	Carnelio Malvasia
قوانين ضغط الغازات (1676).	فرنسي	Edme Mariotte
قياس المسافة بين الأرض والشمس (1672)	فرنسي	Jean Dominique cassini
تفنيد مفهوم التكاثر الذاتي notion de génération spontanée (1668)	إيطالي	Francesco Redi
تعريف العنصر الكيميائي (1661)	أنكليزي	Robert Boyle
صاحب كتاب تاريخ النباتات (Historia plantarum) حيث قدم وصفا لـ 18655 نوعا من النبات (1686).	أنكليزي	John Ray
مكتشف الشعيرات الدموية vaisseaux capillaires (1661)، والكريات الحمراء (1665).	إيطالي	Marcello Malpighi
مكتشف حلقة كوكب زحل والقمر الأول التابع له (1655)؛ ومخترع ميزان دوّلاب الساعة l'échappement à ancre (1657)؛ وتعريف القوة المركزية الطاردة force centrifuge؛ ووضع قوانين رقص الساعة المركب pendule composé (1673)؛ واستخدام اللولب الحلزوني في الساعات Le ressort spiral (1675)؛ وضع نظرية التموج الضوئي (1690).	هولندي	Christian Huygens
مكتشف غاز الأثيلين l'éthylène (1669)	ألماني	J. Joachim Becher
مخترع جهاز قياس الضغط الجوي (البارومتر) الذي يستخدم العداد barometre à cadran (1665)، وأول من عرف الخلية (1665).	أنكليزي	Robert Hooke
صاحب أول دراسة في تشريح الحشرات	هولندي	Jan Swammerdam
وضع قواعد علم طبقات الأرض (stratigraphie) والقشرة الأرضية (tectonique) (1669).	دانيماركي	Nicolas Sténon
أول تجربة حول الطيف الضوئي (انتشار الضوء dispersion de la lumière par le prisme) (1661)؛ ومخترع تيليسكوب جديد (1671)؛ اكتشاف قانون الجاذبية الكونية الذي شرحه في كتابه: Philosophiae naturalis principia mathematica (1687)؛ وصاحب كتاب: علم الحساب العام Arithmetica universalis (1707).	أنكليزي	Isaac Newton
أول قياس لسرعة الضوء (1676).	دانيماركي	Olaus Romer
اكتشاف ملح الزرنيخ l'arsenic (1675).	فرنسي	Nicolas lémery
وضع القواعد الأساسية للحساب التفاضلي calcul différentiel (1686)؛ واضع مفهوم (déterminant) في الرياضيات (1693).	ألماني	Gottfried W. Leibniz
صاحب كتاب: Historia coelestis britanica حيث قدم الاحداثيات الحسابية لنحو 3000 نجم (1725).	أنكليزي	John Flamsteed
اختراع صمام الأمان soupape de sûreté (1679).	فرنسي	Denis papin
نشر كتابه: (Ars conjectandi) حيث قدم إسهاما كبيرا في تقدم علم الاحتمالات (1713).	سويسري	Jacques Bernoulli

اختراع جهاز قياس ضغط السوائل Le manomètre (1705)، واختراع مسطرة تشكل القوى المتقاطعة (1725).	1722-1654	فرنسي	Pierre Varignon
واضع مفهوم النوع في علم النبات (1694).	1708-1656	فرنسي	Joseph Pitton
Synopsis صدور كتابه في الفلك: مختصر علم المذنبات الفلكية d'astronomie cometaire، وفيه معارف فلكية جديدة حول 24 مذنب، وبين الأفلاك التي تدور فيها وعلاقتها بالشمس (1758-1759)؛ واكتشاف الحركة الذاتية للنجوم (1718).	1742-1656	إنكليزي	Edmond Halley
صاحب نظرية الاحتراق phlogistique (1697).	1734-1660	ألماني	Georg Ernest Stahl
أول مؤلف كامل حول الحساب التفاضلي (1696).	1704-1661	فرنسي	Guillaume de l'Hospital
صاحب مفهوم الصفر المطلق في درجة الحرارة (1703).	1705-1663	فرنسي	Guillaume Amonton
مخترع بالاشتراك مع علماء إنكليز آخرين أول ملة تسير بالبخار (1705)، وأعطاه شكلها النهائي في عام 1712.	1729-1663	إنكليزي	Thomas New Comen
مؤلف كتاب Euclides ab omni naevo vindicatus حيث شرح الهندسة غير الإقليدية (1733).	1733-1667	إيطالي	Giovanni Girolano
مؤسس علم الطب الإكلينيكي الذي شرحه في كتابه: مؤسسات علم الطب Institutiones medicae (1708).	1738-1668	هولندي	Herman Boerhaave
مكتشف تولد الكهرباء بالاحتكاك، وإنجاز تجربة نقل الكهرباء (1729)	1736-1670	إنكليزي	Stephen Gray
تطوير ميزان الساعة l'échappement (1715)؛ واختراع الرقاص المتوازن الذي يسير بالزنابق في آلة الساعة balancier compensé à mercure (1719).	1751-1673	إنكليزي	Georg Graham
صاحب أول دراسة حول الضغط الشرياني عند الحيوان (1733).	1761-1677	إنكليزي	Stephen Hales
مخترع آلة قياس ارتفاع الأجرام السماوية من على السطوح المتحركة (السفن) le sextant (1731).	1744-1682	إنكليزي	John Hadley